مختصر التمهيد في علوم القرآن

مختصر لتمهيد أُستاذنا العلاّمة
آية الله الشيخ محمد هادي معرفة دام ظله
في علوم القرآن

تأليف: محمود الملكي الإصفهاني

مختصر التمهيد
في
علوم القرآن

مختصر لتمهيد أستاذنا العلامة
آية الله الشيخ محمد هادي معرفة (دام ظله)
في علوم القرآن

تأليف
محمود الملكي الإصفهاني

مختصر التمهيد فى علوم القرآن

مؤلف :محمود الملكى الاصفهانى

الناشر / مؤسسة دارالعلم لطباعة و النشر

المطبعة / مطبعه قدس قم، هاتف ۷۷۳۱۳۵۴، فاكس ۷۷۴۱۷۹۸

الطبعة / الرابع ،۱۴۲۹

الكمية / ۳۰۰۰ نسخه

السعر / ۲۱۰۰ تومان

مكتبة قم / شارع ارم، مقابل فرع ۲۰، الرقم ۳۵۷

تلفون / ۹ - ۷۷۴۴۲۹۸ فكس / ۷۷۴۱۷۹۸ تلفون انبار/ ۲۹۱۰۱۷۷

مكتبة تهران / شارع انقلاب، ۱۲ فروردين، عمارة الناشرين للتجارة

الطابق الاول، الرقم، ۱۶/۱۸ تلفون: ۶۶۹۵۵۴۰۵ - ۶۶۹۷۳۸۰۹

حق الطبع محفوظة للناشر

شابک ۶ ـ ۰۰ ـ ۵۹۷۶ ـ ۹۶۴ 6 - 00 - 5976 - 964 ISBN

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الّذين اصطفى محمّد وآله الطّاهرين

لا شكّ أنّ القرآن الكريم هو المحور الأساسي لجميع العلوم و المعارف الإسلاميّة و لاسيّما في أُصول المعتقدات و التشريعات، و كان على الفقيه و المتكلّم أن يجعل القرآن نصب عينيه، في الاستنباط و استخراج المباني و الأُصول. الأمر الّذي يعين فهم التفسير الصحيح للآيات القرآنية في جمله و عبائره، ممّا يتوقّف على تمهيدات و مقدّمات تساعد على هذا الفهم و الإدراك، و من ثمّ اعتاد المفسّرون أن يبدأوا بذكر أُمور هي تمسّ مسألة معرفة القرآن و الوقوف على جوانبه المتنوّعة، في مثل مسألة النزول و السياق و تواتر القراءات و مسألة النسخ و وقوع التشابه في القرآن و أسباب ذلك، ممّا عرف فيما بعد باسم «علوم القرآن» و عمد كثير من العلماء إلى استقلال هذه المباحث و إفرادها بصورة علم برأسه، كالزركشي في البرهان، و السيوطي في الإتقان، و سائر الكتب المدوّنة قديماً و حديثاً في هذا الشأن. و كان من حسن الحظّ أن علماء الشيعة الإماميّة كان لهم قصب السبق في هذا المضمار قديماً، و لكن الزمان حال بيننا و بين تلكم المجهودات

الضخمة، فكان حظّنا من جهودهم في هذا العصر ضئيلاً أو بعيداً عن متناول الدارسين لشؤون القرآن الكريم. و من ثمّ رأيت من الواجب أن أقوم بجمع آراء علمائنا المحقّقين فيما دوّنوه و كتبوه بشأن القرآن، و لم أزل أتتبّع وأستقصي الآراء و النظرات القديمة والحديثة في أكثر من ربع قرن، فكان محصول هذا الجهاد المتواصل مباحث جمعت ضمن مسائل متنوّعة تعني بشأن هذا الكتاب العزيز، و أسميتها تمهيدات (التمهيد في علوم القرآن) و خرج إلى الطبع و النشر لحدّ الآن ستّ مجلّدات، و البقية على منصّة التحقيق و التدوين و أسأله تعالى التوفيق في التتميم. و قد لخّصتها في مجلّدين باسم «تلخيص التمهيد» تسهيلاً لإمكان دراستها في المعاهد الدراسيّة، فجاءت نافعة سهلة التناول في أيدي الطلاّب الأعزّاء. غير أن هذا التلخيص أيضاً كان بحاجة إلى اختصار آخر، تسهيلاً على المبتدئين في دراسة شؤون القرآن، مما دعى بالأخ العزيز الفاضل الشيخ محمود الملكي الإصفهاني ـ وفّقه الله تعالى لمرضاته ـ أن يقوم بهذا العمل الجليل، فجاء مجهوده موفّقاً مسدّداً، و جامعاً شاملاً لأمّهات المباحث الّتي أوردتها في التمهيد. و أسماه «مختصر التمهيد» و أسأل الله تعالى أن ينفع به كما نفع بأصله، و أن يوفّق جامعه لخدمة الدين في خطوات أوسع و أشمل إن شاء الله تعالى. والله وليّ التوفيق و هو المسدّد للصواب.

قم ـ محمد هادي معرفة

٢٥ محرم الحرام ١٤١٨

ظاهرة الوحي

الوحي في اللّغة:

الوحي ـ في اللّغة ـ إعلام سريع خفيّ، سواء كان بإيماءة أو همسة أو كتابة في سرّ. قال تعالىٰ عن زكريا عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوحىٰ إليهم أنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيّاً﴾.[1] أي: أشار إليهم على سبيل الرّمز والإيماء.

ولعلّ الخفاء في مفهوم الوحي جاء من قبل اعتبار السّرعة فيه، فالإيماءة السريعة تخفى ـ طبعاً ـ على غير المومىٰ إليه.

الوحي في القرآن:

استعمله القرآن في معانٍ أربعة:

١ ـ معناه اللّغوي: و هو إعلام سريع خفيّ. و قد مَرَّ في آية مريم.

---

١ ـ مريم: ١١.

٢ ـ أمر غريزي فطري: و هو أمر مجعول في ذات الأشياء، و مِنْهُ قوله تعالىٰ: ﴿وَ أوحىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ أنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبالِ بُيُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾.[١] فهي تسلك وفق فطرتها وتستوحي من باطن غريزتها، ولا تعدل عن تلك السبيل.

٣ ـ إلهام نفسي: و هو شعور في الباطن، يحسّ به الإنسان إحساساً، يخفى عليه مصدره أحياناً، و أحياناً يلهم أنّه من الله و قد يكون من غيره تعالى.

من الإلهام الرحماني قوله تعالىٰ: ﴿وَ أوْحَيْنا إلىٰ أُمِّ مُوسىٰ أنْ أرْضِعِيهِ فإذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي إنّا رادُّوهُ إليكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.[٢]

والتعبير بالوحي عن وسواس الشيطان جاء في قوله تعالى: ﴿وَإنَّ الشَّياطِيْنَ لَيُوحُونَ إلَىٰ أوْلِيائِهِم لِيُجادِلُوكُمْ﴾.[٣]

والتعبير بالوحي عمّا يلقيه الله إلى الملائكة من أمره، جاء في قوله تعالى: ﴿إذ يُوحِي رَبُّكَ إلَىٰ الملائِكَةِ أنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الّذِينَ آمَنُوا﴾.[٤]

٤ ـ الوحي الرسالي: استعمله القرآن في أكثر من سبعين موضعاً معبّراً عن القرآن أيضاً بأنّه وحي أُلقي على النّبيﷺ، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ

---

١ ـ النّحل: ٦٨ و ٦٩.

٢ ـ القصص: ٧.

٣ ـ الأنعام: ١٢١.

٤ ـ الأنفال: ١٢.

عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هٰذَا القُرْآنَ﴾،[١] ﴿وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرىٰ وَ مَنْ حَوْلَها﴾.[٢]

و الوحي الرسالي يتحقّق على أنحاء ثلاثة كما جاءت في الآية الكريمة: ﴿وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلّا وَحْياً أو مِنْ وَراءِ حِجابٍ أو يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.[٣]

الصورة الأُولىٰ: إلقاء في القلب.

الصورة الثانية: تكليم من وراء حجاب بخلق الصوت في الهواء بما يقرع مسامع النّبي[٤] ولا يرىٰ شخص المتكلّم.

الصورة الثالثة: إرسال ملك الوحي فيبلّغه إلى النّبي، إمّا عياناً، أو لا يراه و لكن يستمع إلى رسالته.

ملحوظة:

بما أنّ الوحي ظاهرة روحيّة فإنّه بأيّ أقسامه إنّما كان مهبطه قلبه الشريف (شخصيته الباطنة: الروح) قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ﴾،[٥]

---

١ ـ يوسف: ٣.

٢ ـ الشورىٰ: ٧.

٣ ـ الشورىٰ: ٥١.

٤ ـ لكن لا بهذه الأُذن المادّيّة و إلّا لسمعه الآخرون أيضاً بل بذلك السمع الّذي يخصّ باطنه، قال تعالىٰ: ﴿فإنّه نَزَّلهُ عَلىٰ قَلْبِكَ﴾. البقرة: ٩٧.

٥ ـ البقرة: ٩٧.

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمينُ عَلىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ﴾،[١] و القلب هو لبّ الشيء و حقيقته الأصليّة. قال سيّدنا العلّامة الطباطبائيﷺ: «هٰذا إشارة إلىٰ كيفيّة تلقّيهﷺ القرآن النازل عليه، و أنّ الّذي كان يتلقّاه من الرّوح [الأمين] هي نفسه الكريمة من غير مشاركة الحواسّ الظاهرة الّتي هي أدوات لإدراكات جزئيّة خارجيّة...فكانﷺ يرىٰ شخص الملك و يسمع صوت الوحي، لكن لا بهذه السمع و البصر المادّيتين و إلّا لكان أمراً مشتركاً بينه و بين غيره، و لم يكن يسمع أو يبصر هو دون غيره. فكان يأخذه بَرْحاء الوحي و هو بين الناس فيوحي إليه و لا يشعر الآخرون الحاضرون».[٢] نعم، ورد بشأن مولانا أمير المؤمنينﷺ، كان يرىٰ ما يراه النبيّﷺ و يسمع ما يسمعه إلّا أنّه ليس بنبيّ كما قال له الرسولﷺ.[٣]

أنحاء الوحي

بالنسبة إلى نبيّنا محمّدﷺ

الوحي بالنسبة إلى نبيّنا محمّدﷺ على ثلاثة أقسام: تارة يأتيه في المنام، و أُخرىٰ وحياً مباشريّاً من جانب الله بلا توسيط ملك. و ثالثة مع توسيط جبرئيلﷺ:

١ ـ **الرؤيا الصادقة**: كان أوّل ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصادقة،

---

١ ـ الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤.

٢ ـ الميزان: ١٥/ ٣٤٦. بَرْحاء الوحي: شدّة ألمه و الإحساس بِكَرْبِه.

٣ ـ نهج البلاغة صبحي الصالح: ٣٠١ (الخطبة القاصعة).

كان ﷺ لا يرىٰ رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح. قال الإمام الباقر عليه السلام: «وأمّا النبيّ فهو الّذي يرىٰ في منامه، نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام و نحو ما كان رأى رسول الله ﷺ من أسباب النبوّة قبل الوحي، حتّىٰ أتاه جبرائيل عليه السلام من عند الله بالرّسالة».[1]

قوله: «قبل الوحي» أي قبل الوحي الرّسالي المأمور بتبليغه. لأنّ هذا البيان تفسير لمفهوم «النّبي» قبل أن يكون رسولاً، و هو إنسان أُوحي إليه من غير أن يكون مأموراً بتبليغه. فهو يتّصل بالملأ الأعلىٰ اتّصالاً روحيّاً، و ينكشف له الملكوت كما حصل لنبيّنا ﷺ قبيل بعثته المباركة.

و لكن لم يعهد نزول قرآن عليه في المنام، نعم ربّما كانت بعض رؤاه أسباباً لنزول القرآن كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاءَ اللهُ...﴾.[2] فقد رأى النبي ﷺ ذلك عام الحديبية (سنة الستّ من الهجرة) و صدّقت عام الفتح (سنة الثمان من الهجرة).

٢ ـ نزول جبرائيل: كان الملك الّذي ينزل على النبي ﷺ بالوحي هو جبرائيل عليه السلام، تارة يراه، إمّا في صورته الأصليّة ـ و هذا حصل مرّتين ـ أو في صورة دِحْيَة بن خليفة الكلبي، و أُخرى لا يراه.

والمرّتان كانت إحداهما في بدء الوحي بحراء. ظـ ـبرائيل في

---

١ ـ الكافي: ١/ ١٧٦، ح ٣. و بحار الأنوار: ١٨/ ٢٦٦، ح ٢٧.

٢ ـ الفتح: ٢٧.

صورته الأصليّة الّتي خلقه الله عليها، مالئاً أُفق السماء من المشرق والمغرب، فتهيّبه النبيﷺ تهيّباً بالغاً، فنزل عليه جبرائيل في صورة الآدميّين فضمّه إلى صدره، فكان لا ينزل عليه بعد ذلك إلّا في صورة بشر جميل. والثانية كانت باستدعائهﷺ أن يريه نفسه مرّة أُخرىٰ صورته الّتي خلقه الله، فأراه صورته فسدّ الأُفق. فقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾[1] كانت المرّة الأُولىٰ، و قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[2] كانت المرّة الثانية، على ما جاءت في الروايات.[3]

وكان جبرائيل عند ما يتمثّل لرسول اللهﷺ يبدو في صورة دِحْيَة بن خليفة الكلبي، و هو كان أجمل إنسان في المدينة، و كان الصحابة يزعمون أنّ جبرائيل ـ حين يتمثّل بشراً ـ هو دِحْيَةُ الكلبي حقيقة، و من ثمّ نهاهم رسول اللهﷺ أن يدخلوا عليه إذا وجدوا دحية عنده.[4]

٣ ـ الوحيُ المباشري: لعلّ أكثر موارد الوحي كان مباشريّاً لا يتوسّطه ملك، على ما جاء في وصف الصّحابة حالتهﷺ، ساعةَ نزولِ الوحيِ عليه.

قال الشيخُ الصدوقُ: «إنّ النبيﷺ كان يكونُ بين أصحابه فيُغْمىٰ عليه و هو يتصابُّ عرقاً فإذا أفاقَ قال: «قال اللهُ كذا و كذا و أمَرَكُم بكذا و

---

١ ـ النجم: ٧.

٢ ـ النجم: ١٣.

٣ ـ راجع: مجمع البيان: ج ٩ ص ١٧٣ و ١٧٥ وج ١٠ ص ٤٤٦، وتفسير الصافي: ج ٢ ص ٦١٨.

٤ ـ بحار الأنوار: ٣٢٦/٣ عن كتاب حجة التفصيل لابن أثير.

نَهاكم عن كذا». قال: و كان يَزْعَمُ أكثرُ مخالفينا أنَّ ذلكَ كان عند نزول جبرائيلَ، فسُئِل الإمام الصادق عليه السلام عن الغشية الّتي كانت تأخذ النبي صلى الله عليه وآله أكانت عند هبوط جبرائيل عليه السلام؟ فقال: «لا. إنّ جبرائيل كان إذا أتى النبي صلى الله عليه وآله لم يدخل حتّىٰ يستأذنه، و إذا دخل عليه قعد بين يديه قعدة العبد، وإنما ذاك عند مخاطبة الله عزوجلّ إيّاه بغير ترجمانٍ و واسطةٍ».[1]

موقف النبي صلى الله عليه وآله من الوحي

هنا موضوعان لهما أهمّية كبيرة بشأن رسالة الأنبياء وصدق دعوتهم إلى الله، لا بدّ من البحث عنهما:

الأوّل: كيف عرف النبي صلى الله عليه وآله أنّه مبعوث بالرسالة؟ ولِمَ لا يشكّ في أنّ الّذي أتاه شيطان واطمأنّ أنّه جبرائيل؟

الثاني: هل يجوز على النبي صلى الله عليه وآله أن يخطأ فيما يوحى إليه، فيلتبس عليه تخيّلات باطلة في نفسه لتبدو له بصورة وحي أو يلقي عليه إبليس ما يظنّه وحياً من الله؟

أكثر أصحاب الحديث من العامّة جعلوا النبي صلى الله عليه وآله مرتاعاً في أوّل أمره خائفاً على نفسه من مسّ الجنون عائذاً إلى إحضان زوجته الوفيّة لتستنجد هي إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل ـ وكان قارئاً للكتب ـ فيطمئنّه هو بأنّه نبيّ و يؤكّد عليه ذلك حتّى يطمئنّ ويستريح باله. كما أنّهم ذهبوا إلى استيلاء

---

١ ـ كمال الدين للصدوق: ٨٥، بحار الأنوار: ١٨/٢٦٠.

الشيطان على النبي ﷺ، كما جاءت روايتهم لقصة الغرانيق. قالوا: حين نزلت سورة النجم و جعل النبي ﷺ يتلوها، و بلغ قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَ مَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾،[١] ألقى عليه الشيطان: «تلك الغَرانيقُ[٢] العُلى و إنّ شفاعتَهنّ لتُرتَجىٰ»، فحسبها وحياً فقرأها على ملاء من قريش ثمّ قرأ بقيّة السورة و أكملها، فسجد و سجد المسلمون و المشركون أيضاً، تقديراً بما وافقهم محمّد ﷺ في تعظيم آلهتهم و رجاء شفاعتهم، و انتشر هذا النبأ حتّى بلغ مهاجري حبشة فرجعوا إلى مكّة فرحين، كما فرح النبي ﷺ بتحقّق أُمنيّته القديمة على ائتلاف قومه. فلمّا أمسى أتاه جبرائيل، فقال له: «اعرض عليّ السورة». فجعل النبي ﷺ يقرأها عليه حتّى إذا بلغ الكلمتين قال له جبرائيل: «مه، من أين جئت بهاتين الكلمتين؟»، فتندّم رسول الله ﷺ... وقال: «إنّه أتاني آتٍ على صورتك فألقاها على لساني». فقال جبرائيل: «معاذ الله أن أكون أقرأتك هذا».[٣]

لكن ذهب أئمّة أهل البيت عليهم السلام في ذلك مذهباً نزيهاً وجعلوا النبي ﷺ أكرم على الله من أن يتركه إلى غير ذاته المقدّسة و لا ينير عليه الدلائل الموضحة على نبوّته في تلك الساعة الحرجة. كما لا يدع الشيطان أن يسلّط على مشاعر نبيّه الكريم. ﴿و اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.[٤]

---

١ ـ النجم: ١٩ و ٢٠.

(٢) الغرانيق: جمع الغُرنوق وهو الشابّ الناعم الأبيض. وفي الأصل: اسم لطير الماء وهو تشبيه آلهة المشركين بطيور أبيض متحلّقة في أجواء السماء كناية عن قربهم من الله تعالى.

٣ ـ تفسير الطبري: ١٧/ ١٣١ ـ ١٣٤، الدرّ المنثور: ٤/ ١٩٤، فتح الباري: ٨/ ٣٣٣.

٤ ـ الطور: ٤٨.

توضيح ذلك: يجب على الله ـ بمقتضي قاعدة اللطف ـ أن يقرن نبوّته بدلائل نيّرة لا مجال للشك فيها، وهذا الوجوب منبعث من مقام حكمته تعالى إذا كان يريد من عباده الانقياد وإلّا كان نقضاً لغرضه من التكليف. ولهذا لا يدع مجالاً لتدليس أهل الزيغ و الأهواء إلّا و يفضحهم فوراً ﴿وَ لَو تَقَوَّلَ عَلَينا بعضَ الأقاويلِ * لأخَذْنا منه باليَمينِ * ثُمَّ لقَطَعْنا منه الوَتِينَ﴾،[١] ﴿إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا والّذينَ آمَنُوا في الحياةِ الدُّنيا﴾.[٢]

روى زرارة بن أعين قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «كيف لم يخف رسول الله صلى الله عليه وآله فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ممّا ينزغ به الشيطان؟»، قال عليه السلام: «إنّ الله إذا اتّخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة و الوقار،[٣] فكان الّذي يأتيه من قبل الله مثل الّذي يراه بعينه».[٤]

أيضاً: أنّ النبي صلى الله عليه وآله لم يختره الله لنبوّته إلّا بعد أن أكمل عقله و أدّبه فأحسن تأديبه و عرّفه من أسرار ملكوت السماوات والأرض ما يستأهله للقيام بهذه المهمّة الخطيرة. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «و لقد قرن الله به من لدن أن كان فطيماً أعظمَ ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله و نهاره».[٥] وكان قبيل بعثته تظهر له علائم

---

١ ـ الحاقّة: ٤٤ ـ ٤٦.

٢ ـ غافر: ١٥.

٣ ـ أي: الطمأنينة والاعتدال الفكري.

٤ ـ تفسير العيّاشي: ٢/٢٠١، بحار الأنوار: ١٨/٢٦٢.

٥ ـ نهج البلاغة: ١/٣٩٢، الخطبة القاصعة.

النبوّة، فقد ظهرت آياتها قبل ثلاث سنوات من بعثته، فكان يرى الرؤيا الصادقة وكان يختلي بنفسه في غار حراء متفكّراً في أسرار الملكوت، متعمّقاً في ذات الله، متطلّعاً سرّ الخليقة، حتّى فجأه الحقّ و قد بلغ سنّ الأربعين.

على أنّه ﷺ كان أشرف الأنبياء و أفضل المرسلين و خاتم سفراء ربّ العالمين، فكان أكرم عليه تعالى من أن يتركه و نفسَه.

ردّ قصّة ورقة بن نوفل:

قصّة ورقة بن نوفل المشتملة على ارتياع النبي ﷺ، أُسطورة خرافيّة حاكتها عقول ساذجة جاهلة بمقام أنبياء الله الكرام.

أوّلاً: النبي ﷺ أكرم على الله من أن يروّعه في هذه الساعة الّتي هي نقطة عطف في حياة رسوله الكريم.

ثانياً: كيف فضّلوا عقل امرأة لا شأن لها بأسرار النبوّات على عقل إنسان كامل كان قد بلغ القِمّة الّتي استأهله لحمل الرسالة، ثمّ تقوم هي بتجربة يجهلها رسول ربّ العالمين، ليطمئنّ إلى قولها أو قول رجل كان شأنه أنّه كان قارئاً للكتب و ليس في ذلك الزمان كتب فيها حقائق و معارف غير محرّفة؟

ثالثاً: لو صحّت القصّة فلماذا لم يؤمن به ورقة بن نوفل، و قد علم أنّه نبيّ مبعوث؟ حيث إنّه مات و لم يؤمن بالنبي ﷺ مع أنّه عاش حتّى ظهرت دعوته ﷺ.

ردّ أُسطورة الغرانيق:

أُسطورة الغرانيق أُسطورة مفتراة على النبيﷺ، صنعتها القصّاصون و نسبوها إلى بعض التابعين و من الصحابة إلى ابن عبّاس. و هي مردودة سنداً و دلالة.

أمّا من حيث السند:

- أوّلاً: إنّ سندها لم يتّصل إلى صحابي بل أُسند إلى جماعة من التابعين و من لم يدرك حياة رسول اللهﷺ، فالحديث مرسل. و ابن عبّاس كانت ولادته في السنة الثالثة قبل الهجرة و لم يشهد القصّة.

ثانياً: جلّ أئمّة الحديث شهدوا بكذب الخبر، كابن حجر و أحمد بن الحسين البيهقي و أبوبكر بن العربي و القاضي عياض و غيرهم.

ثالثاً: اتّفق المحقّقون من علماء الإسلام على أنّه حديث مفترىً و حكموا عليه بالكذب، لأنّه قبل كلّ شيء متناقض مع صريح القرآن الّذي ﴿لا يَأتِيه الباطلُ مِن بَينِ يَدَيهِ و لا مِن خَلْفِه تَنْزِيلٌ مِن حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.[1]

قال الفخر الرازي: «...أمّا أهل التحقيق فيرونها باطلة موضوعة و اجتمعوا عليها بوجوه من العقل والنقل».[2]

و قال العلّامة الطباطبائي: «الأدلّة القطعيّة على عصمة النبيﷺ تكذّب متن الحديث ـ و إن فرضت صحّة إسناده ـ فمن الواجب تنزيه

---

١ ـ فصّلت: ٤٢.

٢ ـ التفسير الكبير ٢٣/ ٥٠.

جانب قدسيّة النبيﷺ عن أمثال هذه الرذائل الّتي تمسّ كرامة الأنبياء».[١]

و أمّا من حيث الدلالة:

أوّلاً: تناقض القصّة صريحاً مع كثير من نصوص القرآن، مثلاً: قوله تعالى ﴿وَ لَو تَقَوَّلَ عَلَينا بعضَ الأقاويلِ * لأخَذْنا منه باليَمينِ * ثُمَّ لقَطَعْنا منه الوَتِينَ﴾،[٢] كناية عن أنّ أحداً لا يستطيع التّقوّل على الله تلبيساً للحقيقة إلّا و يهلكه الله فوراً. و قوله تعالى ﴿إنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإنّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾،[٣] ضمن سلامة القرآن من تلاعب أيدي المبطلين. و قوله تعالى ﴿إنّه ليس له سلطانٌ على الّذينَ آمَنُوا و على ربِّهم يَتَوَكَّلُونَ﴾،[٤] و قوله تعالى ﴿إنّ عِبادي ليس لك عليهم سلطانٌ و كَفى بربِّك وكيلاً﴾[٥] ضمنا سلامة عباد الله المكرمين من تسلّط الشيطان عليهم. على أنّ الشيطان لا سلطة له على أحد مطلقاً سوى وسوسته و دعوته إلى الشرور، ﴿و ما كانَ لي عليكم من سلطانٍ إلّا أنْ دَعَوتُكُم فَاسْتَجَبْتُم لِي﴾.[٦]

ثانياً: قامت الحجّة و أجمعت الأُمّة على عصمة النبيﷺ و نزاهته عن مثل هذه الرذيلة. أ يقول النبيﷺ ذلك من قبل نفسه عمداً، ذلك كفر، أو

١ـ الميزان ١٤/٤٢٥.

٢ـ الحاقّة: ٤٤ـ٤٦.

٣ـ الحجر: ٩.

٤ـ النحل: ٩٩.

٥ـ الإسراء: ٦٥.

٦ـ إبراهيم: ٢٢.

سهواً و هو معصوم من هذا كلّه. و لولا العصمة في أداء الرسالة لزالت الثقة بالدين. فلا سبيل لإبليس إلى شأن من شؤونه المعتصمة بعصمة الله تعالى.

ثالثاً: تناقض القصّة صريحاً مع آي السورة. قال تعالى في ابتداء سورة النجم: ﴿وَ النَّجمِ إذا هَوىٰ * ما ضَلَّ صاحِبُكُم وَ ما غَوىٰ * و ما يَنْطِقُ عن الهَوىٰ * إن هو إلّا وَحيٌ يُوحىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوىٰ﴾،[1] فلو صحّ ما ذكروه لكان تكذيباً لهذه الشهادة و تغليباً لجانب الشيطان على جانب الرحمان، ﴿إنَّ كَيْدَ الشَّيطانِ كانَ ضَعِيفاً﴾،[2] ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أنا و رُسُلِي إنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.[3] و هل يتصوّر بشأن النبي ﷺ العارف بمواقع الكلام أن يلتبس عليه شأن كلام ساقط لا يتناسب مع سائر آيات السورة؟ كيف ينسجم ذلك مع قوله تعالى ﴿إنْ هِيَ إلّا أسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أنتم و آباؤُكم ما أنْزَلَ اللهُ بِها مَن سلطانٍ﴾؟[4] أم كيف يقنع المشركون ـ و هم أهل نقد و فصاحة ـ بتلك العمل المفضوح؟ و لا سيّما مع قوله ﴿وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ في السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُم شَيئاً﴾؟[5] أ فهل يلتئم هذا الكلام التوحيدي مع أكذوبة «إنّ شفاعَتَهنّ لتُرتجىٰ»؟

رابعاً: سياق السورة لا يحتمل مسألة الغرانيق، فإنّ سياقها ذمّ و تقريع

---

١ ـ النجم: ١ ـ ٥.

٢ ـ النساء: ٧٦.

٣ ـ المجادلة: ٢١.

٤ ـ النجم: ٢٣.

٥ ـ النجم: ٢٦.

و لا ينسجم مع هكذا جملة. الأمر الّذي لا يكاد يخفى على العرب آنذاك.

خامساً: إنّ وصف آلهة قريش بالغرانيق لم يأت في نظم العرب و لا في خطبهم، و لا شيء من معنى الغرنوق يلائم معنى الآلهة الّتي وصفها العرب.

سادساً: لو صحّت الحكاية، لشاعت و ذاعت و أخذها المشركون مستمسكاً في مقابل دعوة النبيﷺ و لم يصدّقوه في دعواه النسخ. مع أنّ التاريخ لم يضبط من تلك القصّة المفتعلة سوى حكايتها عن أُناس تأخّروا عن ظرفها بزمان بعيد، و لم يسجّل التاريخ من يقول: «حَضَرْتُها». الأمر الّذي يجعلنا قاطعين بكذبها و لعلّها من الإسرائيليّات المفضوحة الّتي نسجتها أيدي الطاعنين بالإسلام في عهد انتشار المظالم على البلاد الإسلاميّة في ظلّ حكومة بني أُميّة، أعداء الدين و القرآن.

و بقيت حجّة قاطعة دالّة على استحالة هذه القصّة، فإنّهﷺ في جميع حياته ـ منذ طفوليّته و صباه و شبابه ـ لم يجرّب الكذب قطّ، حتّى سمّي الأمين.

أمّا قوله تعالى: ﴿وَلَولا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَد كِدْتَ تَرْكَنُ إليهم شَيئاً قَلِيلاً﴾،[1] فهي صريحة في أنّهﷺ لم يفعل، بدليل لولا الامتناعيّة. فهي إن دلّت، فإنّما تدلّ على أنّ مقام عصمتهﷺ ـ الّتي هي عناية من الله تعالى خاصّة بأوليائه المنتجبين ـ هي الّتي تحول دائماً عند ارتكاب أيّة رذيلة، مهما كانت، صغيرة أو كبيرة.

---

١ ـ الإسراء: ٧٤.

الأسئلة

١. ما هو معنى الوحي لغةً؟
٢. ما هي المعاني المذكورة للوحي في القرآن الكريم؟
٣. ما هو الوحي الغريزي الفطري؟ أُذكر آية من القرآن جاء فيها الوحي بمعناه الغريزي.
٤. ما هو الإلهام النفسي، و ما هو منشأه؟ أُذكر مثالاً.
٥. ما هو الوحي الرسالي؟ أُذكر آية من القرآن جاء فيها الوحي بمعناه الرسالي.
٦. أُذكر أقسام الوحي الرسالي.
٧. ما هو رأي العلّامة الطباطبائي في «مهبط الوحي القرآني»؟
٨. ما هي أنحاء الوحي بالنسبة إلى نبيّنا محمّد ﷺ؟
٩. هل كان ينزل الوحي على النبي ﷺ قبل البعثة؟ كيف ذلك؟
١٠. ما الفرق بين الرسول والنبي؟
١١. هل نزل شيء من القرآن على النبي ﷺ في المنام؟
١٢. أُذكر مورداً كان رؤيا النبي ﷺ سبباً لنزول القرآن.
١٣. من هو الملك الذي كان ينزل بالوحي على النبي ﷺ؟
١٤. كم مرّةً و أين رأى النبي ﷺ جبرائيل بصورته الأصليّة؟
١٥. في أيّ صورة كان يظهر جبرائيل لرسول الله ﷺ؟

١٦. ما هو الوحي المباشري؟

١٧. بَيِّن حالات النبيّ ﷺ في الوحي المباشري.

١٨. كيف عرف النبي ﷺ أنّه مبعوث بالرسالة؟ ولِمَ لا يشكّ في أنّ الّذي أتاه شيطان واطمأنّ أنّه جبرائيل؟ اذكر القولين في ذلك.

١٩. هل يجوز على النبي ﷺ أن يخطأ فيما يوحى إليه، فيلتبس عليه تخيّلات باطلة في نفسه لتبدو له بصورة وحي أو يلقي عليه إبليس ما يظنّه وحياً من الله؟ اذكر القولين في ذلك.

٢٠. بماذا استدلّ القائلون بأنّ النبي ﷺ كان مرتاعاً في أوّل أمره؟ و كيف الجواب عن هذه المزعومة؟

٢١. بماذا استدلّ القائلون بأنّ إبليس ألقى على النبي ﷺ كلمات زعم أنّها قرآن؟ و كيف الجواب عن هذه المزعومة؟

نزول القرآن

بدء نزول الوحي:

بعث النبي صلى الله عليه وآله بالرسالة في السابع والعشرين من شهر رجب على ما جاء في روايات أهل البيت عليهم السلام. قال الإمام الرضا عليه السلام: «بعث الله ـ عزّ و جلّ ـ محمّداً صلى الله عليه وآله رحمةً للعالمين، في سبع و عشرين من رجب، فمن صام ذلك اليوم كتب الله له صيام ستّين شهراً».[1]

و هكذا وردت روايات من طرق أهل السّنة بتعيين نفس اليوم. روى البيهقي في شعب الإيمان عن سلمان الفارسي، قال: «في رجب يوم و ليلة، من صام ذلك اليوم و قام تلك الليلة كان كمن صام مأة سنة و قام مأة سنة، و هو لثلاث بقين من رجب، و فيه بعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله».[2]

---

١ ـ الكافي: ٤/ ١٤٩.

٢ ـ منتخب كنز العمّال، بهامش المسند: ٣/ ٣٦٢.

بدء نزول القرآن:

لا شكّ أنّ القرآن نزل على رسول‌الله ﷺ في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك، لقوله تعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القرآنُ﴾.[١] و قوله تعالىٰ: ﴿إنّا أنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ﴾[٢]. و قوله تعالىٰ: ﴿إنّا أنْزَلْناهُ في لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.[٣]

لكن كيف يلائم هذا مع القول بأنّ البعثة كانت في رجب و لا شكّ أنّ البعثة كانت مقرونة بنزول آيٍ من القرآن.

فنقول: إنّ بدء البعثه يختلف عن بدء نزول القرآن بعنوان كتاب سماويّ. لأنّه ﷺ نُبّيء و لم يؤمر بالتبليغ العامّ الّا بعد ثلاث سنوات، كان خلالها يدعو في اخفاء حتىٰ نزلت الآية: ﴿فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ أعْرِضْ عَنِ المُشْرِكِينَ﴾.[٤] و من هذا الحين جعل القرآن ينزلُ تدريجيّاً، بسمة كونه كتاباً أُنزل من السماء.

و قد كان بدء نزول القرآن ـ بعد تلك الفترة ـ في ليلة القدر من شهر رمضان و بهٰذا الاعتبار صحّ التعبير بأنّ القرآن نزل في ليلة القدر، و إن كان نزوله تدريجيّاً استغرق عشرين عاماً. قال الإمام الصادق عليه السلام: «مكث رسول‌الله ﷺ بمكّة بعد ما جاءه الوحي عن الله تبارك و تعالىٰ ثلاث عشر

---

١ ـ البقرة: ١٨٥.

٢ ـ الدّخان: ٣.

٣ ـ القدر: ١.

٤ ـ الحجر: ٩٤.

سنة، منها ثلاث سنين مختفياً خائفاً لا يظهر أمره حتّىٰ أمره الله أن يصدع بما أُمر به فأظهر حينئذٍ الدّعوةَ».[١] و قال عليه السلام أيضاً: «ثمّ نزل القرآن في طول عشرين عاماً».[٢]

والنصوص على تحديد فترة نزول القرآن بعشرين عاماً كثيرةٌ.[٣]

و ملاحظة هذه الروايات تعطينا أنّ مبدأ نزول القرآن كان متأخّراً عن البعثة بثلاث سنوات، إذ لاشكّ أنّ القرآن كان ينزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم حتّى عام وفاته، و بذلك يلتئم القول بأنّ بدء نزول القرآن كان في شهر رمضان، ليلة القدر، كما نصّ عليه القرآن الكريم.

أمّا تأويل نزول القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان ـ مع العلم بأنّ القرآن نزل منجّماً طول عشرين أو ثلاثة و عشرين عاماً ـ فللعلماء في ذلك آراء و تأويلات:

١ ـ إنّ بدء نزوله كان في ليلة القدر من شهر رمضان.

قال الفخر الرّازي: «و ذلك لأنّ مبادىء الملل و الدّول هي الّتي تورّخ بها، لكونها أشرف الأوقات و لأنّها أيضاً أوقات مضبوطة معلومة».[٤]

و هكذا فسّر الزمخشري الآية بذلك، قال: «و ابتدىء فيه إنزاله».[٥]

---

١ ـ الغيبة للشيخ الطوسي: ٢١٧.

٢ ـ الأُصول من الكافي: ٢/ ٦٢٩، تفسير العياشي: ١/ ٨٠.

٣ ـ راجع: الإتقان: ١/ ٤٠، و تفسير شبّر: ٣٥٠ عند تفسير آية ٣٢ من سورة الفرقان.

٤ ـ التفسير الكبير: ٥/ ٨٥.

٥ ـ الكشاف: ١/ ٢٢٧.

و اختلاف مناسبات الآيات، حسب الظروف و الدّواعي، أكبر دليل علىٰ اختلاف مواقع نزولها و أنّه لم ينزل جملة واحدة و إلّا لما كان موقع لقول المشركين: ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرآنُ جُمْلَةً واحدةً﴾، قال تعالىٰ ـ ردّاً على هٰذا الاعتراض ـ ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً﴾.[١]

٢ ـ كان ينزل على النبي ﷺ في كلّ ليلة قدر من كلّ عام ما كان يحتاج إليه النّاس في تلك السّنة من القرآن، ثمّ ينزله جبرائيل حسب مواقع الحاجة شيئاً فشيئاً بما يأمره الله تعالىٰ. فيكون المقصود من شهر رمضان هو النّوع، لا رمضان خاصّ. و هو احتمال الفخر الرازي أيضاً.[٢]

و يخالفه ظاهر قوله تعالىٰ: ﴿أُنْزِلَ فِيْهِ﴾ أو ﴿أَنْزَلْناهُ﴾ حكاية عن حدث سابق، فلو صحّ هذا القول لكان المناسب أن يقول: «نُنَزِّلُه» بصيغة المضارع، مضافاً إلى عدم وجود فائدة لنزول القرآن قبل الحاجة إليه. وسيأتي ما ينفع المقام عند البحث عن الرأي الخامس.

٣ ـ شهر رمضان الّذي أُنزل في شأنه القرآن، أي في فرض صيامه، كما يقال: «نزل في فلان أو في مناسبة كذا قرآنٌ». والمراد من القرآن آية أو آيات منه.[٣]

لكن هذا الوجه يخصّ آية البقرة، و لا يجري في آيتي الدّخان والقدر، كما لايخفى. فضلاً عن أنّه تأويل في اللّفظ لا مبرّر له و لا مستند.

---

١ ـ الفرقان: ٣٢.

٢ ـ التفسير الكبير: ٥/ ٨٥.

٣ ـ مجمع البيان: ١/ ٢٧٦ ـ الكشاف: ١/ ٢٢٧.

٤ ـ إنّ معظمه نزل في أشهر رمضان، و من ثمّ صحّت نسبة الجميع إليه.

لكن لا دليل على أنّ معظم آيات القرآن نزلت في أشهر رمضان و في ليلة القدر بالخصوص. و لعلّ الواقعية تأبىٰ هذا الاحتمال رأساً.

٥ ـ القرآن نزل جملة واحدة في ليلة واحدة إلى بيت العزّة[١] أو البيت المعمور[٢] ثمّ نزل على رسول الله ﷺ طول عشرين أو ثلاثة و عشرين عاماً.

ذهب إلى هذا القول جماعة من أرباب الحديث نظراً إلى ظاهر أحاديث رويت في ذلك.

قال الشيخ الصدوق رحمه الله: «نزل القرآن في شهر رمضان ليلة القدر جملة واحدة إلى البيت المعمور في السماء الرّابعة ثمّ نزل من البيت المعمور في مدّة عشرين سنة و إنّ الله أعطىٰ نبيّه العلم جملة واحدة ثمّ قال له: ﴿و لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾».[٣]

و قد جمع العلّامة المجلسي رحمه الله بين الآيات و الروايات و قال: «يجمع بينها بأنّ في ليلة القدر نزل القرآن جملة من اللّوح المحفوظ إلى السماء الرابعة (البيت المعمور) لينزل من السماء الرّابعة إلى الأرض تدريجاً. و نزل في أوّل ليلة من شهر رمضان جملة القرآن على النبيّ ﷺ ليعلمه هو و لا يتلوه علىٰ الناس ثمّ ابتدىء نزوله آية آية و سورة سورة في المبعث أو غيره ليتلوه

---

١ ـ كما جاء في روايات العامّة.

٢ ـ كما جاء في روايات الخاصّة.

٣ ـ طه: ١١٤، اعتقادات المجلسي: ١٠١.

على الناس».[١]

و روى الطبراني و غيره عن ابن عبّاس، قال: «أُنزل القرآن ليلة القدر جملة واحدة إلى السماء الدنيا، و وضع في بيت العزّة، ثمّ أُنزل نجوماً على النبيﷺ في عشرين سنة».

قال جلال الدين السيوطي: «هٰذا هو أصحّ الأقوال و أشهرها».[٢] و روي في ذلك روايات كثيرة. و قد أخذ الظاهريّون من أصحاب الحديث بظاهر هذه الرّوايات مستريحين بأنفسهم إلى مدلولها الظاهري تعبّداً محضاً.

أمّا المحقّقون من العلماء فلم يرضهم الأخذ بما لا يمكن تعقّله و لا مقتضي للتعبّد بما لا يرجع إلى أُصول العباديّات، و من ثمّ أخذوا ينقدون هذه الأحاديث نقداً علميّاً، متسائلين: ما هي فائدة نزول القرآن جملة واحدة في إحدى السّماوات العلىٰ، ثمّ نزوله تدريجيّاً على رسول اللهﷺ؟

قال الفخر الرّازي: «يحتمل أن يكون ذلك تسهيلاً على جبرائيل أو لمصلحة النبيﷺ في توقّع الوحي من أقرب الجهات».[٣]

و هذا الجواب غاية في الوهن مضافاً إلى أنّه تخرّص بالغيب.

و قال الفيض الكاشاني: «كأنّه أُريد بذلك نزول معناه على قلب النبيّﷺ كما قال تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلىٰ قَلْبِكَ﴾[٤].

١ـ بحار الانوار: ١٨/ ٢٥٣، ٢٥٤.

٢ـ الإتقان: ١/ ٣٩ و ٤٠.

٣ـ التفسير الكبير: ٥/ ٨٥.

٤ـ الشعراء: ١٩٣.

ثمّ نزل طول عشرين سنة نجوماً من باطن قلبه إلى ظاهر لسانه كلّما أتاه جبرائيل عليه السلام بالوحي و قرأه عليه بألفاظه».[١]

فقد أوّل عليه السلام البيت المعمور إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وآله و ربّما أراد الصدوق عليه السلام أيضاً هذا المعنىٰ من قوله «أعطى نبيّه العلم جملة واحدة». و هٰكذا وقع اختيار الشيخ أبي عبدالله الزنجاني في تأويل هذه الرواية.[٢]

و قد أخذ العلاّمة الطباطبائي رحمه الله هذا التأويل و زاد عليه تحقيقاً، قال: «إنّ الكتاب ذو حقيقة أُخرىٰ وراء ما نفهمه بالفهم العادي، و هي حقيقة ذات وحدة متماسكة لاتقبل تفصيلاً و لا تجزئة، لرجوعها إلى معنى واحد لا أجزاء فيه و لا فصول. و إنّما هذا التفصيل المشاهد في الكتاب طرأ عليه بعد ذلك الإحكام، قال تعالىٰ: ﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدن حَكيمٍ خَبِيْرٍ﴾.[٣] و قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيْمٌ * فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ * لاٰ يَمَسُّهُ إِلاّ الْمُطَهَّرُونَ﴾[٤] و قال: ﴿وَلَقَدْ جِئناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلىٰ عِلْمٍ﴾.[٥]...إذن فالمراد بإنزال القرآن في ليلة القدر، إنزال حقيقة الكتاب المتوحّدة إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وآله دفعة، كما أُنزل القرآن المفصّل في فواصل و ظروف علىٰ

---

١ ـ تفسير الصافي: ١/ ٤٢، المقدمة التاسعة.

٢ ـ تاريخ القرآن: ١٠.

٣ ـ هود: ٢.

٤ ـ الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩.

٥ ـ الأعراف: ٥٢.

قلبه ﷺ أيضاً تدريجاً في مدّة الدّعوة النبويّة».[١]

أقول: هذا كلام لطيف لكنّه غير مستند إلى دليل، و المسألة قبل كلّ شيء نقليّة و ليست بالعقليّة النظريّة.

قال الشيخ المفيد: «الّذي ذهب إليه أبو جعفر(الصدوق رحمه الله) في هذا الباب، أصله حديث واحد ـ أي ليس من المتواتر المقطوع به ـ لا يوجب علماً و لا عملاً. و نزول القرآن على الأسباب الحادثة حالاً فحالاً يدلّ على خلاف ما تضمّنه هذا الحديث. و ذلك أنّ القرآن قد تضمّن حكم ما حدث و ذكر ما جرى على وجهه، و ذلك لا يكون على الحقيقة إلّا لوقت حدوثه عند السّبب...مثلاً: قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَ تَشْتَكي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما﴾،[٢] نزل بشأن خولة بنت خويلد جاءت تشتكي زوجها أوس بن الصّامت الّذي كان قد ظاهرها، و كان ذلك طلاقاً في الجاهليّة[٣]...و كثير في القرآن لفظ «قالوا» و «جاؤوا» و «جاء» ـ بلفظ الماضي ـ كما أنّ فيه ناسخاً و منسوخاً...كلّ ذلك لا يتناسب مع نزوله جملة واحدة في وقت لم يحدث شيء من ذلك».[٤]

و القرآن نفسه دلّ على ذلك أيضاً، قال تعالى: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

---

١ ـ الميزان: ٢/ ١٥ و ١٦.

٢ ـ المجادلة: ١.

٣ ـ مجمع البيان: ٩/ ٢٤٦.

٤ ـ شرح عقائد الصدوق (تصحيح الاعتقاد): ٥٨.

لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً﴾.[١] و لو كان أُنزل جملة واحدة لقيل في جوابهم: «قد أُنْزِلَ على ما اقْتَرَحْتُم». و لايكون الجواب كذلك بل قال: ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً﴾.[٢] و فسّر المفسّرون كلّهم ذلك بأن قالوا: «المعنىٰ إنّا أنزلناه كذلك ـ أي: متفرّقاً ـ ليتمهّل على إسماعه و يتدرّج إلىٰ تلقّيه». و الترتيل أيضاً إنّما هو ورود الشيء في إثر شيء.

وكان ﷺ في أوائل نزول الملك عليه بالوحي، يخشى أن يفوته اللفظ ومن ثمّ كان يحرّك لسانه وشفتيه ليستذكره و لا ينساه وكان يتابع جبرائيلَ في كلّ حرف يلقيه عليه، فنهاه تعالى عن ذلك ووعده بالحفظ والرعاية من جانبه تعالى، قال: ﴿لا تُحَرِّكْ بِه لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِه* إنَّ عَلَينا جَمْعَه وقُرآنَه* فإذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرآنَه* ثُمَّ إنّ عَلَينا بَيانَه﴾.[٣] و ربّما كان ﷺ يقرأ على أصحابه فور قراءة جبرائيل عليه، و قبل أن يستكمل الوحي أو تنتهي الآيات النازلة حرصاً على ضبطه وثبته، فنهاه تعالى أيضاً و قال: ﴿ولا تَعْجَلْ بالقُرآنِ مِنْ قَبلِ أنْ يُقْضىٰ إليك وَحْيُه﴾،[٤] فتعالى تعالى بالحفظ والرعاية الكاملة. فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبرائيل استمع له فإذا انطلق قرأه كما أقراه، قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُك فَلا تَنْسىٰ﴾.[٥]

---

١ ـ الفرقان: ٣٢.

٢ ـ الفرقان: ٣٢.

٣ ـ القيامة: ١٦ ـ ١٩.

٤ ـ طه: ١١٤.

٥ ـ الأعلى: ٦.

أوّل ما نزل:

ما هي أوّل آية أو سورة نزلت من القرآن؟

الأقوال في ذلك ثلاثة:

١ ـ **سورة العلق:** في تفسير الإمام العسكري عليه السلام: «هبط إليه جبرائيل و أخذ بضبعه و هزّه، فقال: يامحمّد! اقرأ، قال: و ما أقرأ؟ قال: يـامحمّد! ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَأ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسانَ مالَمْ يَعْلَمْ﴾». (١)

٢ ـ **سورة المدَّثِّر:** روي عن ابن سلمة، قال: «سألت جابر بن عبدالله الأنصاري: أيّ القرآن أُنزل قبل؟ قال: يا أيّها المدَّثِّر. قلتُ: أو اقرأ باسم ربّك؟ قال: أُحَدِّثكم ما حَدَّثَنا به رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّي جاورت بحراء، فلّما قضيت جواري نزلت فاستبطنت الوادي، فنظرت أمامي و خـلفي و عـن يميني و شمالي ـ و لعلّه سمع هاتفاً ـ ثمّ نـظرتُ إلى السماء فـإذا هـو ـ يـعني جبرائيل ـ فأخذتني رجفة، فأتيت خديجة، فأمرتهم فدثّروني، فأنـزل الله ﴿يا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾». (٢)

و لعلّ جابراً اجتهد من نفسه أنّها أوّل سورة نزلت، إذ ليس في كلام رسول‌الله صلى الله عليه وآله دلالة على ذلك و الأرجح أنّ ما ذكره جابر كان بعد فـترة انقطاع الوحي فظنّه جابر بدء الوحي. (٣) حيث روى جابر حديث فـترة

---

١ ـ العلق: ١ ـ ٥. راجع: بحارالأنوار: ١٨/ ٢٠٦ و تفسيرالبرهان: ٢/ ٤٧٨.

٢ ـ صحيح مسلم: ١/ ٩٩.

٣ ـ راجع: البرهان: ١/ ٢٠٦.

انقطاع الوحي أيضاً، قال: «سمعت رسول الله ﷺ يحدّث عن فترة انقطاع الوحي، قال: فبينا أنا أمشي إذ سمعت هاتفاً من السماء، فرفعت رأسي فإذا الملك الّذي جاءني بحراء جالساً على كرسيّ بين السماء والأرض، فجئت منه فرقاً ـ أي فزعت ـ فرجعت، فقلت: زمّلوني زمّلوني فدثّروني، فأنزل الله تبارك و تعالىٰ: ﴿يا أيّها المدّثّر* قُمْ فَأَنْذِرْ* وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ* وَثِيابَك فَطَهِّرْ* وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ ـ و هي الأوثان ـ قال ﷺ: ثمّ تتابع الوحي».[1]

٣ ـ **سورة الفاتحة:** قال الزّمخشري: «أكثر المفسّرين على أنّ الفاتحة أوّل ما نزل».[2]

و روي عن أمير المومنين عليه السلام أنّه قال: «سألت النبيّ ﷺ عن ثواب القرآن، فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء فأوّل ما نزل عليه بمكّة: فاتحة الكتاب، ثم: اقرأ باسم ربّك، ثم: ن والقلم...».[3]

و لا شكّ أنّ النّبي ﷺ كان يصلّي منذ بعثته، و كان يصلّي معه عليّ و جعفر و زيد بن حارثة و خديجة[4] و «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[5] فقد ورد في الأثر: أوّل ما بدأ به جبرائيل أن علّمه الوضوء

---

١ ـ صحيح مسلم: ١/ ٩٨.

٢ ـ الكشاف: ٤/ ٧٧٥.

٣ ـ مجمع البيان: ١٠/ ٤٠٥.

٤ ـ تفسير علي بن ابراهيم القمي: ٣٥٣.

٥ ـ مستدرك الحاكم: ١/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

والصلاة،[١] فلا بدّ أنّ سورة الفاتحة كانت مقرونة بالبعثة.

الجمع بين الأقوال: نحن لا نرىٰ تنافياً جوهريّاً بين الأقوال الثلاثة لأنّ الآيات الثلاثة أو الخمسة من أوّل سورة العلق إنّما نزلت تبشيراً بنبوّته ﷺ و هذا إجماع أهل الملّة. ثمّ بعد فترة جاءته آيات ـ أيضاً ـ من أوّل سورة المدّثّر كما جاء في حديث جابر ثانياً.

أمّا سورة الفاتحة فهي أوّل سورة نزلت بصورة كاملة و بسمة كونها سورة من القرآن كتاباً سماويّاً للمسلمين. و من هنا صحّ التعبير عن سورة الحمد بسورة الفاتحه، أي: أوّل سورة كاملة نزلت بهذه السمة الخاصّة. إذ ليس المراد من الفاتحة أنّها كتبت في بدء المصاحف لأنّ هذا الترتيب شيء حصل بعد وفاة النبي ﷺ أو لا أقلّ في عهد متأخّر من حياته ـ فرضاً ـ في حين أنّها كانت تسمّىٰ بفاتحة الكتاب منذ بداية نزولها كما يشير إليه قوله ﷺ: «لا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب».[٢]

آخر ما نزل:

ما هي آخر آية أو سورة نزلت من القرآن؟

الأقوال في ذلك أربعة:

١ ـ **سورة النصر:** روي عن الصادق عليه السلام: «و آخر سورة نزلت ﴿إِذَا جَاءَ

---

١ ـ سيرة ابن هشام: ١/ ٢٦٠ ـ ٢٦١. و بحارالأنوار: ١٨/ ١٨٤، ح ١٤ و ص ١٩٤، ح ٣٠.

٢ ـ صحيح مسلم: ٢/ ٩.

نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾».[١]

٢ ـ **سورة براءة**: روي أنّها آخر سورة نزلت. نزلت في السنة التاسعة بعد عام الفتح عند مرجعه ﷺ من غزوة تبوك، نزلت آيات من أوّلها فبعث بها النّبي مع عليّ عليه السلام ليقرأها على ملأ من المشركين.[٢]

٣ ـ **آية (وَاتَّقُوا يَوْماً...)**: روي أنّ آخر آية نزلت هي آية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيْهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَاكَسَبَتْ وَ هُمْ لَايُظْلَمُونَ﴾. نزل بها جبرئيل، و قال: «ضعها في رأس المأتين والثمانين من سورة البقرة». و عاش الرسول ﷺ أحداً و عشرين يوماً، و قيل: سبعة أيام.[٣]

٤ ـ **آية إكمال الدين**: روي أنّ آخر آية نزلت هي آية: ﴿اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُم وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَ رَضِيْتُ لَكُم الإِسْلامَ دِيْناً﴾.[٤]

قال اليعقوبي: «كان نزولها يوم النّص على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (صلوات الله عليه) بغدير خم».[٥]

الجمع بين الأقوال: لا شكّ أنّ سورة النّصر نزلت قبل براءة لأنّها كانت بشارة بالفتح أو بمكّة عام الفتح[٦] و براءة نزلت بعد الفتح بسنة.

---

١ ـ تفسير البرهان: ١/ ٢٩.

٢ ـ تفسير البرهان: ١/ ٦٨٠.

٣ ـ تفسير شبّر: ٨٣.

٤ ـ المائدة: ٣.

٥ ـ تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٣٥.

٦ ـ أسباب النزول بهامش الجلالين: ٢/ ١٦٥.

فطريق الجمع بين هذه الروايات: أنّ آخر سورة نزلت كاملة هي سورة النّصر، فقالﷺ: أما إنّ نفسي نعيت إليّ. و آخر سورة نزلت باعتبار مفتتحها هي سورة براءة. و أمّا آية ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرجَعُونَ فِيه إلىٰ اللهِ...﴾ فإن صحّ أنّها نزلت بمنىٰ يوم النحر في حجّة الوداع ـ كما جاء في رواية الماوردي[1] ـ فآخر آية نزلت هي آية الإكمال ـ كما ذكرها اليعقوبي ـ لأنّها نزلت في مرجعهﷺ من حجّة الوداع ثامن عشر ذي الحجّة. و إلّا فلو صحّ أنّ النبيﷺ عاش بعد آية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فيهِ إلىٰ اللهِ...﴾ أحداً وعشرين يوماً أو سبعة أو تسعة أيّام، فهٰذه هي آخر آية نزلت عليهﷺ.

والأرجح ما ذهب إليه اليعقوبي، نظراً إلى أنّها آية الإعلام بكمال الدّين، فكانت إنذاراً بانتهاء الوحي عليهﷺ بالبلاغ والأداء. فلعلّ تلك الآية كانت آخر آيات الأحكام، و هذه آخر آيات الوحي إطلاقاً.

المكّي والمدني

لمعرفة المكّي و المدنيّ فائدة كبيرة ترتبط مع أسباب النزول و تمدّ المفسّر والفقيه في تعيين اتّجاه الآية و في مجال معرفة الناسخ من المنسوخ، والخاصّ من العامّ، والقيد من الإطلاق، و ما أشبه.

و في تعيين المكّي والمدنيّ ثلاث نظريات:

---

١ ـ البرهان: ١/ ١٨٧.

الأُولىٰ: ما نزل قبل الهجرة أو في أثناء الطريق قبل وصوله ﷺ إلى المدينة فهو مكّي و ما نزل بعد ذٰلك و لو في غير المدينة حتّىٰ لو نزل في مكّة عام الفتح أو في حجّة الوداع فهو مدنيّ.

الثانية: ما نزل بمكّة و حواليها ـ و لو بعد الهجرة ـ فهو مكّي، و ما نزل بالمدينة و حواليها فهو مدنيّ و ما نزل خارجاً عنهما فهو لا مكّي و لا مدنيّ.

الثالثة: كلّ شيء نزل فيه «يا أيّها الناس» فهو بمكّة و كلّ شيء نزل فيه «يا أيّها الّذين آمنوا» فهو بالمدينة.[١] قال الزركشي: «لأنّ الغالب على أهل مكّة الكفر، والغالب على أهل مدينة الإيمان».[٢]

والمشهور الّذي جرىٰ عليه أكثر أهل القلم هو الاصطلاح الأوّل.[٣] وكان التحديد الآتي في نظم السّور حسب ترتيب نزولها معتمداً على هذا الاصطلاح.

ترتيب نزول السور

اعتمدنا في هذا العرض على عدّة روايات متّفق عليها وثق بها أكثر العلماء، و عمدتها رواية ابن عباس بطرق و أسانيد اعترف بها أئمّة الفن.[٤]

---

١ ـ مستدرك الحاكم: ٣/ ١٨. و هذا ما قاله ابن مسعود.

٢ ـ البرهان: ١/ ١٨٧.

٣ ـ البرهان: ج ١، ص ١٨٧، الإتقان: ج ١، ص ٩.

٤ ـ راجع: مجمع البيان: ١٠/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦، الإتقان: ١/ ١٠ ـ ١١ و ٢٥.

والنظر في هذا العرض كان إلى مفتتح السّور، فالسورة إذا نزلت من أوّلها بضع آيات، ثمّ نزلت أُخرىٰ، و بعدها اكتملت الأُولىٰ، كانت الأُولىٰ متقدّمة على الثانية في ترتيب النزول، حسب هذا الاصطلاح. لكن هذا التحديد لم يكن متفقاً عليه عند الجميع.

و إليك قائمة السّور المكّية، و عددها: ستّ و ثمانون سورة، متقدمة على السّور المدنيّة، و عددها: ثمان و عشرون سورة. مع غضّ النظر عن سور مختلف فيها.

السور المكيّة (٨٦)

ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف
١	العلق	٩٦
٢	القلم	٦٨
٣	المزّمّل	٧٣
٤	المدّثّر	٧٤
٥	الفاتحة[١]	١
٦	المسد	١١١
٧	التكوير	٨١
٨	الأعلىٰ	٨٧
٩	الليل	٩٢
١٠	الفجر	٨٩
١١	الضحىٰ	٩٣
١٢	الشرح	٩٤
١٣	العصر	١٠٣
١٤	العاديات	١٠٠
١٥	الكوثر	١٠٨
١٦	التكاثر	١٠٢
١٧	الماعون	١٠٧
١٨	الكافرون	١٠٩
١٩	الفيل	١٠٥
٢٠	الفلق	١١٣
٢١	الناس	١١٤
٢٢	التوحيد	١١٢
٢٣	النجم	٥٣
٢٤	عبس	٨٠
٢٥	القدر	٩٧
٢٦	الشمس	٩١
٢٧	البروج	٨٥
٢٨	التين	٩٥
٢٩	قريش	١٠٦
٣٠	القارعة	١٠١
٣١	القيامة	٧٥
٣٢	الهمزة	١٠٤
٣٣	المرسلات	٧٧
٣٤	ق	٥٠
٣٥	البلد	٩٠
٣٦	الطارق	٨٦
٣٧	القمر	٥٤
٣٨	ص	٣٨
٣٩	الأعراف	٧
٤٠	الجنّ	٧٢
٤١	يسٓ	٣٦

١ ـ سقطت الفاتحة من رواية ابن عباس، فأثبتناها على رواية جابر بن زيد: الإتقان: ج ١ ص ٢٥ و على نصّ تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ٢٦.

ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف
٤٢	الفرقان	٢٥
٤٣	فاطر	٣٥
٤٤	مريم	١٩
٤٥	طه	٢٠
٤٦	الواقعة	٥٦
٤٧	الشعراء	٢٦
٤٨	النمل	٢٧
٤٩	القصص	٢٨
٥٠	الإسراء	١٧
٥١	يونس	١٠
٥٢	هود	١١
٥٣	يوسف	١٢
٥٤	الحجر	١٥
٥٥	الأنعام	٦
٥٦	الصّافّات	٣٧
٥٧	لقمان	٣١
٥٨	سبأ	٣٤
٥٩	الزمر	٣٩
٦٠	غافر	٤٠
٦١	فصّلت	٤١
٦٢	الشورى	٤٢
٦٣	الزخرف	٤٣
٦٤	الدخان	٤٤
٦٥	الجاثية	٤٥
٦٦	الأحقاف	٤٦
٦٧	الذاريات	٥١
٦٨	الغاشية	٨٨
٦٩	الكهف	١٨
٧٠	النحل	١٦
٧١	نوح	٧١
٧٢	إبراهيم	١٤
٧٣	الأنبياء	٢١
٧٤	المؤمنون	٢٣
٧٥	السجدة	٣٢
٧٦	الطور	٥٢
٧٧	الملك	٦٧
٧٨	الحاقّة	٦٩
٧٩	المعارج	٧٠
٨٠	النبأ	٧٨
٨١	النازعات	٧٩
٨٢	الانفطار	٨٢
٨٣	الانشقاق	٨٤
٨٤	الروم	٣٠
٨٥	العنكبوت	٢٩
٨٦	المطفّفين	٨٣

السور المدنيّة (٢٨)

ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف
٨٧	البقرة	٢
٨٨	الأنفال	٨
٨٩	آل عمران	٣
٩٠	الأحزاب	٣٣
٩١	الممتحنة	٦٠
٩٢	النساء	٤
٩٣	الزلزال	٩٩
٩٤	الحديد	٥٧
٩٥	محمّد	٤٧
٩٦	الرعد	١٣
٩٧	الرحمن	٥٥
٩٨	الإنسان	٧٦
٩٩	الطلاق	٦٥
١٠٠	البيّنة	٩٨
١٠١	الحشر	٥٩
١٠٢	النصر	١١٠
١٠٣	النور	٢٤
١٠٤	الحجّ	٢٢
١٠٥	المنافقون	٦٣
١٠٦	المجادلة	٥٨
١٠٧	الحجرات	٤٩
١٠٨	التحريم	٦٦
١٠٩	الجمعة	٦٢
١١٠	التغابن	٦٤
١١١	الصف[١]	٦١
١١٢	الفتح	٤٨
١١٣	المائده[٢]	٥
١١٤	براءة	٩

١ ـ جعل الزركشي في البرهان سورة الصف بعد التحريم و قبل الجمعة.

٢ ـ قدّم الزركشي براءة على المائدة و جعل هذا الأخير آخر السور.

الأسئلة

١. كيف يمكن الجمع بين القول بنزول القرآن في شهر رمضان و بعثة النبيﷺ في شهر رجب مع العلم بأنّ البعثة اقترنت بنزول آي من القرآن؟

٢. ما هي التأويلات في الجمع بين نزول القرآن في شهر رمضان و النزول في مدّة الرسالة؟ و ما هو التأويل الصحيح؟ لماذا؟

٣. لِمَ لايصحّ الالتزام بأنّ المراد من نزول القرآن في شهر رمضان نزول قرآن في شأنه؟

٤. هل يصحّ القول بأنّ نزول معظم القرآن كان في شهر رمضان؟ لماذا؟

٥. ما هو رأي الشيخ الصدوقﷺ في نزول القرآن؟

٦. كيف يجمع العلاّمة المجلسي بين الآيات والروايات الواردة في نزول القرآن؟

٧. ما هو رأي الطبراني في نزول القرآن؟

٨. ما هو رأي الفخر الرازي في تأويل الأحاديث الواردة في النزول الدفعي والتدريجي؟

٩. ما هو رأي الفيض الكاشانيﷺ في تأويل الأحاديث الواردة في النزول الدفعي والتدريجي؟

١٠. اشرح رأى العلامة الطباطبائيﷺ في النزول الدفعي والتدريجي.

١١. لِمَ لانقبل التأويلات المذكورة في النزول الدفعي والتدريجي؟

١٢. اشرح رأي الشيخ المفيد﵀ في النزول الدفعي والتدريجي؟

١٣. لِمَ لا يدلّ قوله تعالى: «لا تُحَرِّكْ بِه لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِه إنَّ عَلَينا جَمْعَه و قُرآنَه»، على النزول الدفعي؟

١٤. لِمَ لا يدلّ قوله تعالى: «ولا تَعْجَلْ بالقُرآنِ مِنْ قَبلِ أنْ يُقْضىٰ إليك وَحْيُه»، على النزول الدفعي؟

١٥. ما هي الأقوال في أوّل ما نزل على النبيﷺ و كيف يجمع بينها؟

١٦. لِمَ سمّيت سورة الحمد بفاتحة الكتاب؟

١٧. ما هي الأقوال في آخر ما نزل على النبيﷺ و كيف يجمع بينها؟

١٨. ما هى الفائدة لمعرفة المكّي والمدني؟

١٩. ما هي الملاكات في تعيين المكي والمدني؟ و ما هو الأرجح منها؟

٢٠. كم عدد السور المكّيّة؟

٢١. كم عدد السور المدنيّة؟

أسباب النزول

إذا كان القرآن ينزل تدريجيّاً و لمناسبات شتّى كانت تستدعي نزول آية أو آيات تعالج شأنها، فقد اصطلحوا على تسمية تلك المناسبات بأسباب النزول أو شأن النزول،[1] و هو علم شريف و لمعرفته دور خطير في فهم معاني القرآن الكريم و حلّ معضلات التفسير.

---

١ ـ إن كانت هناك مشكلة حاضرة، سواء أكانت حادثة أبهم أمرها، أم مسألة خفي وجه صوابها، أم واقعة ضلَّ سبيل مخرجها، فنزلت الآية لتعالج شأنها و تضع حَلّاً لمشكلتها، فتلك هي أسباب النزول أي السّبب الداعي والعلّة الموجبة لنزول قرآن بشأنها. و شأن النزول هو الأمر الذى نزل القرآن ـ آية أو سورة ـ لتعالج شأنه بياناً و شرحاً أو اعتباراً بمواضع اعتباره. كما في أكثريّة قصص الماضين والإخبار عن أمم سالفين، أو عن مواقف أنبياء و قدّيسين، كانت مشوّهة وكادت تمسّ من كرامتهم أو تحطّ من قدسيّتهم، فنزل القرآن ليعالج هذا الجانب، و يبيّن الصحيح من حكاية حالهم والواقع من سيرتهم بما يرفع الإشكال والإبهام. و عليه فالفارق بين السبب والشأن ـ اصطلاحاً ـ أنّ الأوّل يعني مشكلة حاضرة لحادثة عارضة. والثاني مشكلة أمر واقع، سواء أكانت حاضرة أم غابرة. و قولهم: نزلت في كذا... أعمّ، قد يراد السّبب العارض، و قد يراد شأن أمر واقع في الغابر... و قال الزركشي: و قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أنّ أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا.. فإنّه يريد بذلك أنّ هذه الآية تتضمّن هذا الحكم، لا أنّ هذا كان السبب في نزولها... راجع: البرهان: ١/ ٣١ ـ ٣٢.

لضرورة دين أو متنافراً مع بديهة العقل.

مثلاً: روى البخاري و[redacted] عن المسيّب، قال: لمّا حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النّبي ﷺ و عنده أبوجهل و عبدالله بن أبي أُميّة، فقال النّبي ﷺ: «أي عمّ! قل: لا إله إلّا الله، أُحاجّ لك بها عند الله». فقال أبوجهل و عبدالله: «يا أباطالب! أترغب عن ملّة عبدالمطّلب؟»، فقال النّبي ﷺ: «لأستغفرنّ لك ما لم أُنهَ عنك»، فنزلت ﴿ما كانَ لِلنَّبِي وَالَّذِيْنَ آمَنُوا أنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِيْنَ وَلَوْ كانُوا أُولي قُرْبىٰ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أنَّهُمْ أصْحابُ الجَحيمِ﴾.[1]

مع أنّ أباطالب عليه السلام مات قبل الهجرة بثلاث سنين، و كان عضداً قويّاً لرسول الله ﷺ، أمّا آية براءة فإنّها نزلت في سنة التسع من الهجرة، أي بعد وفاة أبي طالب باثنتي عشرة سنة. هذا فضلاً عن الدلائل الوفيره على إسلام أبي طالب، و لا يقول بكفره إلّا ذوو الأحقاد على الإسلام و المسلمين أحقاد بدر و حنين.

التنزيل والتأويل:

روي عن النبي ﷺ أنّه قال: «ليس من القرآن آية إلّا و لها ظهر وبطن»[2].

قال الإمام الباقر عليه السلام: «ظهر القرآن الّذين نزل فيهم، و بطنه الّذين

---

١ ـ براءة: ١١٣، صحيح البخاري: ٦/ ٨٧.

٢ ـ بحار الأنوار: ٣٣/ ١٥٥.

عملوا بمثل أعمالهم».[١] و ذلك أنّ للآية وجهاً مرتبطاً بالحادثة الواقعة ـ الّتي استدعت نزولها ـ و وجهاً آخر عامّاً تكون الآية بذلك دستوراً كلّياً يجري عليه المسلمون أبديّاً، و كما أنّ الآية عالجت ـ بوجهها الخاصّ ـ مشكلة حاضرة، فإنّها ـ بوجهها العامّ ـ تعالج مشاكل الأُمّة على مرّ الأيّام. غير أنّ الوقوف على تأويل القرآن و فهم بطون الآيات، إنّما هو من اختصاص الراسخين في العلم.

مثلاً: قال تعالىٰ: ﴿وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾.[٢] هذه الآية تبدو ـ في ظاهرها ـ متعارضة مع آيات التوجّه في الصلاة شطر المسجد الحرام.[٣] و لكن مع ملاحظة سبب النزول، و أنّه دفع لشبهة اليهود و رفع لارتيابهم في تحويل القبلة، يتبيّن أن لا معارضة، و يرتفع الإبهام عن وجه الآية، لأنّ الاستقبال في الصّلاة والعبادات أمر اعتباريّ محض، ينوط باعتبار صاحب الشريعة في مصالح يراها مقتضية حسب الأحوال والأوضاع، و ليس وجه الله محصوراً في زاوية القدس الشريف أو الكعبة المكرّمة.

و قد فهم الأئمّة عليهم السلام أمراً آخر أيضاً، استخرجوه من باطن الآية، و أنّها تعني جواز التطوّع بالنوافل إلى حيث توجّهت به راحلتك، أو اشتبهت القبلة، فتصلّي إلى أيّ جهات شئت.

---

١ ـ تفسير العياشي: ١/ ١١، ح ٤

٢ ـ البقرة: ١١٥.

٣ ـ البقرة: ١٤٤ و ١٤٩ و ١٥٠.

العبرة بعموم اللفظ لابخصوص المورد:

هٰذه قاعدة أُصوليّة مطرّدة في جميع أحكام الشريعة المقدسة، فما يصدر من منابع الوحي و الرسالة بشأن بيان أحكام الله و تكاليفه للعباد، ليس يخصّ مورداً دون مورد، و لم يأت الشرع لمعالجة حوادث معاصرة فقط، و إنّما هو شرع للجميع. الأمر الّذى دعا الفقهاء إلى إلغاء الخصوصيات المورديّة و الأخذ بإطلاق الحكم. نعم هناك بعض الخطابات مع فئات معهودة، صدرت على نحو القضية الخارجية،[1] فإنّها لاتعمّ بلفظها، و إن كانت قد تعمّ بملاكها، إذا كان قد أُحرز يقيناً.

مثلاً: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لايُؤمِنُونَ * خَتَمَ الله عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ على سَمْعِهِمْ وَ عَلىٰ أبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾.[2]

قال العلّامة الطباطبائيﷺ: «لا يبعد أن يكون المراد هم الكفّار من صناديد قريش و كبراء مكّة الّذين عاندوا و لجّوا في أمر الدّين و لم يألوا جهداً في ذلك. إذ لا يمكن استطراد هذا التعبير في حقّ جميع الكفّار، وإلّا لانسدّ باب الهداية. فالأشبه أن يكون المراد من «الّذين كفروا» هاهنا و في ساير الموارد من كلامه تعالىٰ هم كفّار مكّة في أوّل البعثة، إلّا

---

١ ـ من مصطلح علم المنطق، و هي عبارة عن معهودية الموضوع في القضية، كقولك: أكرم من في المسجد أو في المدرسة، تريد من هو في مسجد البلد أو مدرسته في الحال الحاضر. و ليس في كلّ الأزمان و كلّ المساجد والمدارس على الإطلاق.

٢ ـ البقرة: ٦ ـ ٧.

أن تقوم قرينة على خلافه...نظير ما سيأتي أنّ المراد من قوله «الّذين آمنوا» فيما أُطلق في القرآن من غير قرينة على إرادة الإطلاق، هم السابقون الأوّلون من المؤمنين. خصّوا بهٰذا الخطاب تشريفاً.[١] نعم هذا الحكم يسري فيمن شابه أُولئك في العناد واللّجاج مع الحقّ بعد الوضوح.

نزول القرآن بـ«إيّاكِ أعني فاسمعي يا جارَة»:

قال الإمام الصادق عليه السلام: «نزل القرآن بـ«إيّاكِ أعني فاسمعي يا جارَة».[٢] و هذا مَثَل لمن يخاطب شخصاً أو يتكلّم عن أمر و هو يريد غيره على سبيل الكناية و التعريض.

و قال عليه السلام أيضاً: «ما عاتب الله نبيّه فهو يعني به من قد مضىٰ في القرآن، مثل قوله: ﴿وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاك لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيْلاً﴾،[٣] عنى بذلك غيره صلى الله عليه وآله».[٤] قوله «من قد مضىٰ في القرآن» أي مضىٰ ذكره إشارة أو تلويحاً و ربّما نصّاً. و الأكثر أن يراد أُمّته صلى الله عليه وآله بالعتاب، و لاسيّما المؤمنون صدر الإسلام، كانوا على قلقٍ و اضطراب في مواضعهم مع الكفّار.

---

١ ـ تفسير الميزان: ١/ ٥٠.

٢ ـ تفسير العياشي: ١/ ١٠، ح ٤.

٣ ـ الإسراء: ٧٤.

٤ ـ تفسير العياشي: ١/ ١٠ ح ٥.

كيف الاهتداء إلى معالم القرآن؟

خير وسيلة لفهم معالم القرآن هو اللّجوء إلى أبواب رحمة الله و منابع فيضه القدسيّ، أهل بيت الوحي، الّذين هم أدرى بما في البيت. فإنّ بيدهم مفاتيح هذه الأبواب. فإنّهم عدل القرآن و أحد الثقلين الّذين أوصىٰ بهما الرسول الكريم ﷺ و في كلماتهم الكثير من الإرشادات إلى معالم القرآن و فهم حقائقه، ممّا لا تجده في كلام غيرهم.

من ذٰلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْلا أنْ رَأىٰ بُرْهٰانَ رَبِّهِ﴾.[1] فلولا الامتناعية دلّت على أنّ الهمَّ من يوسف لم يقع...لكن ما المراد من «برهان ربّه» الّذي منعه و عصمه من همّ المعصية؟ قيل: إنّه رأى صورة أبيه عاضّاً على إصبعه، و قيل: غير ذلك، ممّا يتنافى مع عصمة مقام النبوّة. والصحيح ما هدانا إليه الأئمّة الراشدون: أنّه الإيمان الصادق الّذي هو منشأ العصمة في أنبياءالله عليهم السلام، بدليل تعقيبه بقوله: ﴿كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ إنّهُ مِنْ عِبادِنا المُخْلَصِيْنَ﴾.[2] إشارة إلى مقام عصمة الأنبياء.[3]

١ـ يوسف: ٢٤.

٢ـ يوسف: ٢٤.

٣ـ راجع: تفسير الميزان: ١١/ ١٤١ و ١٨١.

الأسئلة

١. ما هي الفائدة في معرفة شأن النزول؟ أُذكر لذلك مثالاً.

٢. ما هو الشرط الأساسي للاستناد إلى شأن النزول؟ لماذا؟

٣. ما الفرق بين التأويل والتنزيل؟

٤. ما المراد من ظاهر القرآن و باطنه؟ أُذكر لذلك مثالاً.

٥. اشرح هذه العبارة:

«العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص المورد».

٦. هل الخطابات التي صدرت في القرآن على نحو القضيّة الخارجيّة تعمّ غير المخاطبين بها؟

٧. ما المراد من قولهم: «ايّاكِ اعني فاسمعي يا جارة»؟ و كيف نزل القرآن بهذا؟ أُذكر لذلك مثالاً.

٨. لِمَ نحتاج في فهم معالم القرآن إلى الأئمّة المعصومين عليهم السلام؟ أُذكر لذلك مثالاً.

تأليف القرآن

تأليف القرآن في شكله الحاضر ـ في نظم آياته و ترتيب سوره، و كذلك في تشكيله و تنقيطه و تفصيله إلى أجزاء و مقاطع ـ لم يكن وليد عامل واحد، و لم يكتمل في فتره الوحي الأُولىٰ. فقد مرّت عليه أدوار و أطوار، ابتدأت بالعهد الرسالي، و انتهت بدور توحيد المصاحف على عهد عثمان، ثمّ إلى عهد الخليل بن أحمد النحويّ الذى أكمل تشكيله بالوضع الموجود.

و المهمّ الآن هو العناية بدراسة القرآن من زاوية جمعه و تأليفه مصحفاً بين دفّتين والبحث عن الفترة الّتي حصل فيها هذا الجمع والتأليف و عن العوامل التي لعبت هذا الدّور الخطير.

والبحث الحاضر يكتمل فى ثلاث مراحل أساسية:

أوّلاً: نظم كلماته بصورة جمل و تراكيب كلاميّة ضمن الآيات.

ثانياً: تأليف آياته ضمن السّور.

ثالثاً: ترتيب السّور بين دفّتين على صورة مصحف كامل.

نظم كلماته:

لا شك أنّ نظم الكلمات و الجمل و التعابير في القرآن، كلّها كانت بفعله تعالى، لم يحدث فيها أيّ تغيير أو تبديل، لا بزيادة و لا بنقص و لا بتغيير موضعي أصلاً. ﴿لا يَأتِيْهِ الباطلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيْلٌ مِنْ حَكِيْمٍ حَمِيدٍ﴾،[١] ﴿إنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإنّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾.[٢]

و لمزيد التوضيح نقول:

أوّلاً: إسناد الكلام إلى متكلّم خاصّ يستدعي أن يكون هو العامل في تنظيم كلماته و أُسلوبه التعبيري الخاصّ. و بما أنّ القرآن المجيد هو كلام الله العزيز الحميد، فلا بدّ أن يكون الوحي هو العامل الوحيد في تنظيم كلماته جملاً و تراكيب كلاميّة بديعة.

ثانياً: كان القسط الأوفر من إعجاز القرآن كامناً وراء هذا النظم البديع. و قد تحدّىٰ القرآن فصحاء العرب و أرباب البيان ـ بصورة عامّة ـ لو يأتون بمثل هذا القرآن و ﴿لايَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيْراً﴾.[٣] و تجويز إمكان تدخّل يد بشريّة في نظم القرآن، كان بمعنى إبطال هذا التحدّي الصارخ.

ثالثاً: اتّفاق كلمة الأُمّة في جميع أدوار التاريخ على أنّ النظم الموجود في الآيات الكريمة هو من صنع الوحي السماوي. الأمر الّذي التزم به جميع

١ـ فصّلت: ٤٢.

٢ـ الحجر: ٩.

٣ـ الإسراء: ٨٨.

الطوائف الإسلاميّة، على مختلف آرائهم في سائر المواضيع. و من ثمّ لم يتردّد أحدٌ من علماء الأدب والبيان في آية قرآنيّة جاءت مخالفة لقواعد رسموها، في أخذ الآية حجّة قاطعة على تلك القاعدة و تأويلها إلى ما يلتئم و تركيب الآية. و ذلك علماً منهم بأنّ النظم الموجود في الآية وحيٌ لا يتسرّب إليه خطأ البتّة، و إنّما الخطأ فيما استنبطوه من قواعد مرسومة.

مثال ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَما أَرْسَلْنَاكَ إِلّا كافَّةً لِلنّاسِ﴾[1] فزعموا أنّ الحال لا تتقدّم على صاحبها المجرور بحرف، والآية جاءت مخالفة لهٰذه القاعدة. و لجأ ابن مالك إلى نبذ القاعدة، لأنّها مخالفة للآية، قال:

وَ سَبقَ حالٍ ما بحرفٍ جُرَّ قَدْ أبَوا و لا أمْنَعُهُ فَقَدْ وَرَدَ

تأليف آياته:

تأليف الآيات ضمن كلّ سورة، على الترتيب الموجود، قد تحقّق ـ في الأكثر ـ وفق ترتيب نزولها. كانت السورة تبتدأ بـ«بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيمِ» فتسجّل الآيات التي تنزل بعدها من نفس هذه السورة، واحدة تلو أُخرىٰ تدريجيّاً حسب النزول، حتّىٰ تنزل بسملة أُخرىٰ، فيعرف أنّ السورة قد انتهت وابتدأت سورة أُخرىٰ. قال الإمام الصّادق عليه السلام: «كان يعرف انقضاء السورة بنزول «بِسْمِ اللهِ الرّحمٰنِ الرّحيمِ» ابتداءً لأُخرىٰ».[2]

---

١ ـ سبأ: ٢٨.

٢ ـ تفسير العياشي: ١/ ١٩، ح ٥.

و هذا الترتيب نسمّيه بالترتيب الطبيعي.

و هناك عامل آخر عمل في نظم قسم من الآيات على خلاف ترتيب نزولها، و ذلك بنصّ من رسول‌الله صلى الله عليه وآله. كان يأمر ـ أحياناً ـ بثبت آية في موضع خاصّ من سورة سابقة كانت قد ختمت من قبل. روي أنّ آخر آية نزلت، قوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلىٰ اللهِ﴾ فأشار جبرئيل أن توضع بين آيتي الربا والدين من سورة البقرة.[1]

و ربّما كانت السورة تفتتح، و قبل أن تكتمل، تفتتح سورة أُخرى و تكتمل الأخيرة قبل أن تكتمل الأُولىٰ. و ذٰلك كان بأمر النبيّ صلى الله عليه وآله و بإشارته، كما في سورة البقرة، هي أوّل سورة ابتدىء نزولها بالمدينة بعد الهجرة، لٰكنّها استمرّ نزولها سنوات، إذ فيها الكثير من الآيات نزلن في هٰذه الفترات المتأخّرة، منها: آية ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما﴾.[2] إنّها نزلت عندما تحرّج المسلمون من السعي بين الصفا والمروة لمكان أساف و نائلة عليهما، و كان المشركون وضعوهما على الجبلين يطوفون بهما و يلمسونهما. فنزلت الآية دفعاً لتوهّم الحظر. الأمر الذي يستدعي نزولها بعد صلح الحديبية في عمرة القضاء،[3] و هو عام الستّ من الهجرة. أو لعلّ النبيّ صلى الله عليه وآله أمر بوضع الآية في هذا الموضع من السورة. والله العالم.

---

١ ـ الإتقان: ١/ ٦٢.

٢ ـ البقرة: ١٥٨.

٣ ـ روي ذٰلك عن الإمام الصادق عليه السلام، راجع: تفسير العياشي. ١/ ٧٠ و ١٣٣.

ترتيب سوره:

كانت سور القرآن مكتملة على عهده صلى الله عليه وآله مرتّبة آياتها و أسماؤها، غير أنَّ جمعها بين دفّتين لم يكن حصل بعد، نظراً لترقب نزول قرآن في عهده صلى الله عليه وآله فما دام لم ينقطع الوحي لم يصحّ تأليف السّور مصحفاً إلّا بعد الاكتمال وانقطاع الوحي، الأمر الّذي لم يكن يتحقّق إلّا بانقضاء عهد النبوّة و اكتمال الوحي. قال الإمام الصادق عليه السلام: قال رسول‌الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: «يا عليّ! القرآن خلف فراشي في الصحف والحرير والقراطيس، فخذوه واجمعوه و لاتضيّعوه».[1]

هذا هو المعروف عن رواة الآثار و عند الباحثين عن شؤون القرآن، منذ الصدر الأوّل إلى يومنا هٰذا. و لٰكن مع ذٰلك نجد من ينكر ذٰلك التفصيل في جمع القرآن، و يرىٰ أنّ القرآن بنظمه القائم و ترتيبه الحاضر كان قد حصل في حياة الرسول صلى الله عليه وآله.

و قد ذهب إلى هذا الرأي جماعة من علماء السلف و وافقهم علم الهدىٰ السيد المرتضىٰ رحمه الله واستدلّ على ذٰلك بأنّ القرآن كان يدرس و يحفظ جميعه في ذٰلك الزمان حتّىٰ عيّن جماعة من الصحابة في حفظهم له، و أنّه كان يعرض على النبي صلى الله عليه وآله و يتلىٰ عليه. و أنّ جماعة من الصحابة مثل عبدالله بن مسعود و أُبيّ بن كعب و غيرهما ختموا القرآن على النبي صلى الله عليه وآله عدّة ختماتٍ. و كلّ ذٰلك يدلّ بأدنىٰ تأمّل على أنّه كان مجموعاً مرتّباً.[2]

١ـ بحار الأنوار: ٩٢/ ٤٨، ح ٧ عن تفسير علي بن إبراهيم.

٢ـ مجمع البيان: ١/ ١٥.

لكن حفظ القرآن هو بمعنىٰ حفظ جميع سوره الّتي اكتملت آياتها، سواء كان بين السور ترتيب أم لا. و هكذا ختم القرآن هو بمعنى قراءة جميع سوره من غير لحاظ ترتيب خاصّ بينها. أو الحفظ كان بمعنى الاحتفاظ على جميع القرآن النازل لحدّ ذاك والتحفظ عليه من الضياع والتفرقة، و هو لا يدلّ على وجود ترتيب خاصّ بين سوره كما هو الآن.

جمع علي بن أبي طالب عليه السلام:

أوّل من تصدّىٰ لجمع القران بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله مباشرة و بوصيّة منه هو علي بن أبي طالب عليه السلام. قعد في بيته مشتغلاً بجمع القرآن و ترتيبه على ما نزل، مع شروح و تفاسير لمواضع مبهمة من الآيات و بيان أسباب النزول و مواقع النزول بتفصيل.

قال عليه السلام: «ما نزلت آية على رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا أقرأنيها و أملأها عليّ فأكتبها بخطّي. و علّمني تأويلها و تفسيرها و ناسخها و منسوخها و محكمها و متشابهها. و دعاالله لي أن يعلّمني فهمها و حفظها فما نسيت آية من كتاب الله و لا علماً أملاه عليّ فكتبته منذ دعا لي ما دعا».[1] و بعث القوم إليه ليبايع فاعتذر باشتغاله بجمع القرآن، فسكتوا عنه أيّاماً حتّىٰ جمعه في ثوب واحد و ختمه ثمّ خرج إلى الناس و هم مجتمعون حول أبي بكر في

١ـ تفسير البرهان: ١/ ١٦، ح ١٤.

المسجد و خاطبهم قائلاً: «إنّي لم أزل منذ قبض رسول الله ﷺ مشغولاً بغسله و تجهيزه ثمّ بالقرآن حتّى جمعته كلّه في هذا الثوب الواحد و لم ينزل الله على نبيّه آية من القرآن إلّا و قد جمعتها، وليس منه آية و قد أقرأنيها رسول الله ﷺ و علّمني تأويلها، أن تقولوا غداً: إنّا كنّا عن هذا غافلين!». فقام إليه رجل من كبار القوم ـ و في رواية أبي ذرّ: فنظر فيه فلان و إذا فيه أشياء[1] ـ فقال يا عليّ أُردده فلا حاجة لنا فيه، ما أغنانا بما معنا من القرآن عمّا تدعونا إليه فدخل عليّ عليه السلام بيته.[2]

و هذا المصحف يتوارثه أوصياؤه الأئمّة من بعده، واحداً بعد واحدٍ لا يرونه لأحدٍ.[3] و في عهد عثمان حين اختلفت المصاحف و أثار ضجّة بين المسلمين، قال طلحة للإمام عليه السلام: «ما يمنعك ـ يرحمك الله ـ أن تخرج كتاب الله إلى الناس؟»، فكفّ عليه السلام عن الجواب أوّلاً، فكرّر طلحة السؤال، فقال: «لأراك يا أبا الحسن أجبتني عمّا سألتك من أمر القرآن ألّا تظهره للناس؟»، قال عليه السلام: «يا طلحة! عمداً كففت عن جوابك. فأخبرني عمّا كتبه القوم أقرآن كلّه أم فيه ما ليس بقرآن؟»، قال طلحة: «بل قرآن كلّه». قال عليه السلام: «إن أخذتم بما فيه، نجوتم من النّار و دخلتم الجنّة»، قال طلحة: «حسبي، أمّا إذا كان قرآناً فحسبي».[4]

---

١ ـ احتجاج الطبرسي: ٨٢.

٢ ـ كتاب سليم بن قيس: ٧٢.

٣ ـ بحار الأنوار: ٩٢/ ٤٢، ح ١.

٤ ـ سليم بن قيس: ١١٠ و بحار الأنوار: ٩٢/ ٤٢، ح ١.

جمع زيد بن ثابت:

كان ذلك الإنكار الشديد لمصحف عليعليه السلام يستدعي التفكير في القيام بجمع القرآن مهما كلّف الأمر، بعد أن أحسّ الناس بضرورة جمع القرآن، و لا سيّما كانت وصيّة نبيّهمصلى الله عليه وآله بجمعه لئلا يضيّع، كما ضيّعت اليهود توراتهم.[1] مضافاً إلى أنّه قد استحرّ القتل بكثير من حامليه و يوشك أن يذهب القرآن بذهاب حامليه، فقد قتل منهم سبعون في واقعة يمامة. و في رواية: أربعمأة.[2]

و هذه الفكرة أبداها عمر بن الخطّاب، واقترح على أبي بكر ـ و هو ولي المسلمين يوم ذاك ـ أن ينتدب لذلك من تتوفّر فيه شرائط القيام بهذه المهمّة الخطيرة، فوقع اختيارهم على زيد بن ثابت، و هو شابّ حدث و له سابقة كتابة الوحي أيضاً. فقد ملك الجدارة الذاتيّة من غير أن يخشىٰ منه على جوانب الخلافة الفتيّة في شيء، كما كان يخشىٰ من غيره من كبار الصحابة، و فيهم شيء من الجموح و عدم الانقياد التّام لميول السلطة وأهدافها آنذاك.

منهج زيد:

وجّه زيد نداء عاماً إلى ملأ الناس: «من كان تلقّىٰ من رسول اللهصلى الله عليه وآله شيئاً من القرآن فليأتِ به». و ألّف لجنة من خمسة و عشرين عضواً ـ كما

---

١ ـ تفسير القمي: ٧٤٥.

٢ ـ فتح الباري: ٧/ ٤٤٧.

جاء في رواية اليعقوبي[١] ـ و كان عمر يشرف عليهم بنفسه. و كان اجتماعهم على باب المسجد يوميّاً والناس يأتونهم بآي القرآن و سوره، كلّ حسب ما عنده من القرآن.

و من غريب الأمر أنّ عمر جاء بآية الرّجم وزعمها من القرآن: «الشيخُ والشيخةُ إذا زَنَيا فَارجموهما البتّةَ نكالاً من اللهِ»، لكنّه واجه بالرفض، ولم تقبل منه، لأنّه لم يستطع إثبات أنّها من القرآن. و بقي أثر ذلك في نفس عمر، فكان يقول ـ أيّام خلافته ـ: «لولا أن يقول الناس: «زاد عمر في كتاب الله»، لكتبتها بيدي ـ يعني آية الرّجم ـ».[٢]

ثم إنّ جمع زيدٍ لم يكن مرتّباً و لا منظّماً كمصحف، و إنّما كان الاهتمام في ذلك الوقت على جمع القرآن عن الضياع، و ضبط آياته و سوره حذراً عن التلف بموت حامليه، فدوّنت في صحف و جعلت في إضبارة، و أُودعت عند أبي بكر مدّة حياته، ثمّ عند عمر بن الخطّاب حتّىٰ توفّاه الله، فصارت عند ابنته حفصة، و هي النسخة التي أخذها عثمان لمقابلة المصاحف عليها، ثمّ ردّه عليها، و كانت عندها إلى أن ماتت، فاستلبها مروان من ورثتها حينما كان والياً على المدينة من قبل معاوية، فأمر بها فشقّت.[٣]

---

١ ـ تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١١٣.

٢ ـ تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٦١. والبرهان: ٢/ ٣٥. والإتقان: ٢/ ٢٦.

٣ ـ إرشاد الساري: ٧/ ٤٤٩.

مصاحف أُخرىٰ للصّحابة

في الفترة بعد وفاة النبيﷺ قامت جماعة من كبار الصحابة بتأليف القرآن و جمع سوره بين دفّتين، كلّ بنظم و ترتيب خاصّ، و كان يسمّى مصحفاً. و حاز بعض هذه المصاحف مقاماً رفيعاً في المجتمع الإسلامى آنذاك. فكان أهل الكوفة يقرأون على مصحف عبدالله بن مسعود و أهل البصرة على مصحف أبي‌موسى الأشعري. و أهل الشام على مصحف أُبيّ بن كعب و...[1]

لكن كان أمد هذه المصاحف قصيراً جدّاً انتهى بزمن توحيد المصاحف على عهد عثمان فذهبت مصاحف الصحابة عرضة التمزيق والحرق. أرسل عثمان إلى كلّ أُفق بمصحف ممّا نسخوا، و أمر بما سواه من القرآن في كلّ صحيفة أو مصحف أن يحرق.[2] نعم حظيت بعضها عمراً أطول، كالصحف التي كانت عند حفصة.

وكان الوصف العامّ الّذي كانت مصاحف الصحابة في ذلك الزمان تتّسم به، هو تقديم السور الطوال على القصار نوعاً ما في ترتيب منهجيّ خاصّ، يقرب من الترتيب الموجود في القرآن الآن.

---

١ ـ الكامل في التاريخ: ٣/ ٥٥. و راجع: صحيح البخاري: ٦/ ٢٢٥. والمصاحف للسجستاني: ١١ ـ ١٤. والبرهان: ١/ ٢٤١ ـ ٢٤٣.

٢ ـ صحيح البخاري: ٦/ ٢٢٦.

الأسئلة

١. ما الدليل على أنّ نظم كلمات القرآن كان من قبل الله تبارك و تعالى؟
٢. ما معنى حكومة القرآن على القواعد الأدبيّة؟ أُذكر لذلك مثالاً.
٣. ما المراد من الترتيب الطبيعي في تأليف آيات القرآن ضمن كلّ سورة؟
٤. هل هناك عامل آخر يكون مؤثّراً في تأليف آيات القرآن غير الترتيب الطبيعي؟ وضّح ذلك بالمثال.
٥. كم استمرّ نزول سورة البقرة؟ و هل نزل في خلالها سورة أُخرى أم لا؟
٦. ما الدليل على أنّ ترتيب سور القرآن حصل بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله ؟
٧. ما هو دليل القائلين بأنّ ترتيب سور القرآن حصل في حياة النبي صلى الله عليه وآله؟ و ما هو الجواب على أدلّتهم؟
٨. من هو أوّل من تصدّى بجمع القرآن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله بوصيّة منه؟
٩. أُذكر مميّزات قرآن أمير المؤمنين عليه السلام.
١٠. ماذا فعل علي عليه السلام بقرآنه بعد جمعه؟
١١. لماذا أمر أبوبكر بجمع القرآن؟
١٢. ما هي العلّة التي استدعت باختيار زيد بن ثابت لجمع القرآن؟
١٣. ما هو منهج زيد بن ثابت في جمع القرآن؟
١٤. بيّن أمد المصحف الذي جمعه زيد بن ثابت.
١٥. أيّ مصحف من مصاحف الصحابة حاز مقاماً رفيعاً في

المجتمع الإسلامي؟

١٦. إلى أيّ أمدٍ بقيت مصاحف الصحابة؟

١٧. ما هو الوصف العام الّذي كانت مصاحف الصحابة تتّسم به؟

توحيد المصاحف

سبق أنّه بعد وفاة النبيﷺ قد اهتمّ كبار الصحابة بتأليف سور القرآن و جمع آياته حسب ماأُوتوا من علم و كفاءة، كلّ في مصحف يخصّه. و من لم يقدر على ذلك لجأ إلى غيره ليستنسخ له مصحفاً أو يجمع له آيات و سوراً في صحف. و هكذا أخذت نسخ المصاحف تتزايد اطّراداً مع اتّساع رقعة الإسلام. و لمّا كان جامعو المصاحف متعدّدين و متباعدين و مختلفين بحسب الكفاءة والمقدرة والاستعداد، كانت طبيعة الحال تقتضي باختلاف المصاحف أُسلوباً و ترتيباً و قراءة و غيرها. و هٰذا الاختلاف كان بلا شكّ يستدعي اختلافاً بين الناس عند اجتماعهم، فربّما كان المسلمون يجتمعون في غزوة أو احتفال و هم من أقطار متباعدة فيقع بينهم نزاع و جدال و إنكار أحدهم على الآخر فيما يتعصّبون له من مذهب أو عقيدة أو رأي. فبعضهم يرىٰ أنّ قراءتهم خير من قراءة غيرهم.[1]

---

١ ـ الكامل في التاريخ: ٣/ ٥٥.

و بعضهم يكفّر أحياناً بقراءة بعض.[١]

فكرة توحيد المصاحف:

إنّ أوّل من فكّر في توحيد المصاحف هو حذيفة بن اليمان، فإنّه في سفره إلى غزو أرمينية ـ آذربيجان ـ شاهد اختلاف الناس في القراءات، فلمّا رجع إلى الكوفة حلف ليأتينّ الخليفة وليأمرنّه بجعلها قراءة واحدة، كما استشار هو من كان بالكوفة من صحابة الرّسول ﷺ فوافقوه على ما عزمه،[٢] سوى عبدالله بن مسعود. ثمّ سار إلى المدينه يستحثّ عثمان على إدراك أُمّة محمّد ﷺ قبل تفرّقها فجمع عثمان الصحابة و أخبرهم الخبر، فأعظموه و رأوا جميعاً ما رأى حذيفة.[٣]

و هكذا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أبدىٰ رأيه موافقاً لهذا الأمر، قال عليه السلام: «فوالله ما فعل عثمان الذي فعل في المصاحف إلّا عن ملأ منّا. استشارنا في أمر القراءات...قلنا: فماذا رأيت؟ قال: أرىٰ أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة و لا اختلاف. قلنا: فنعم ما رأيت».[٤] و في رواية أُخرىٰ قال: «لو ولّيت في المصاحف ما ولّىٰ عثمان لفعلت كما فعل».[٥]

---

١ ـ الإتقان: ١/ ٥٩.

٢ ـ الكامل في التاريخ: ٣/ ٥٥.

٣ ـ الكامل في التاريخ: ٣/ ٥٥.

٤ ـ المصاحف للسجستاني: ٢٢.

٥ ـ النشر: ١/ ٨. والمصاحف للسجستاني: ٢٣.

وكان عليه السلام ـ بعد ماتولّىٰ الخلافة ـ أحرص الناس على الالتزام بالمصحف المرسوم ـ حتّىٰ و لو كانت فيه أخطاء املائيّة ـ حفظاً على كتاب الله من أن تمسّه يد التحريف فيما بعد باسم الإصلاح.

و هكذا سار على منهجه عليه السلام الأئمّة من ولده عليهم السلام:

قرأ رجل عند الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام حروفاً من القرآن ليس علىٰ ما يقرؤه الناس! فقال له الإمام عليه السلام: «مه مه! كُفَّ عن هذه القراءة واقرأ كما يقرأ الناس». و من ثمّ وقع إجماع أصحابنا الإماميّة على أنّ ما بأيدينا هو قرآن كلّه،[1] لم تمسّه يد تحريف أصلاً. و أنّ القراءة المشهورة هي القراءة الصحيحة، الّتي تجوز القراءة بها في الصلاة و غيرها من أحكام أجروها على النّص الموجود، واعتبروه القرآن الّذي أُوحي إلىٰ النبي صلى الله عليه وآله و لم يعتبروا شيئاً سواه.

و أمّا ابن مسعود فلا أظنّ مخالفته كانت جوهريّة، و إنّما أغضبه انتداب أشخاص غير أكفاء لهذا الأمر الخطير كان أمثاله جديرين له. كما يظهر من كلامه حيث قال: «يا معشر المسلمين أأُعزل عن نسخ المصاحف و يتولّاها رجلٌ، والله لقد أسلمت و إنّه لفي صلب رجل كافر ـ يريد زيد ابن ثابت ـ».[2]

---

١ ـ راجع: حديث طلحة مع الإمام عليه السلام. بحار الأنوار: ٩٢/ ٤١ ـ ٤٢، ح ١.

٢ ـ فتح الباري: ٩/ ١٧.

لجنة توحيد المصاحف:

ندب عثمان أربعة للقيام بهذا الأمر وهم زيد بن ثابت ـ و هو أنصاري ـ و سعيد بن العاص و عبدالله بن الزبير و عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ـ و هم قرشيّون ـ.[١] و كانت الرياسة لزيد كما يظهر من كلام ابن مسعود المتقدّم آنفاً.

لكن هولاء الأربعة لم يستطيعوا القيام بصميم الأمر و من ثمّ استعانوا بجماعة أُخرىٰ مثل عبدالله بن عباس و أُبيّ بن كعب و غيرهما. و في هذه المرحلة كانت الرياسة مع أُبيّ بن كعب فكان هو يملي و يكتب الآخرون.[٢] و كان هذا في سنة خمس وعشرين، في السنة الثالثة أو الثانية من خلافة عثمان، كما قال ابن حجر.[٣]

اختارت لجنة توحيد المصاحف في عملها ثلاث مراحل أساسيّة:

١ـ جمع المصاحف أو الصحف التي فيها قرآن من أطراف البلاد الإسلاميّة و إمحائها. فقد أرسل عثمان إلى كلّ أُفق من يجمع المصاحف أو الصحف التي فيها قرآن و أمر بها أن تحرق.[٤] فلم يبق مصحف إلّا فعل به ذلك خلا مصحف ابن مسعود فامتنع أن يدفع مصحفه إلى عبدالله بن عامر

١ـ صحيح البخاري: ٦/ ٢٢٦.

٢ـ المصاحف للسجستاني: ٣٠.

٣ـ فتح الباري: ٩/ ١٥. والترديد باعتبار الاختلاف في أنّ يوم البيعة لعثمان هل هو العشر الأخير من ذي‌الحجة عام ٢٣ أو العشر الأوّل من محرّم عام ٢٤. راجع تاريخ الطبري: ٣/ ٣٠٣.

٤ـ صحيح البخاري: ٦/ ٢٢٦.

فأمر به عثمان فجرّ برجله حتىٰ كسر له ضلعان.[١]

٢ـ البحث عن منابع صحيحة لغرض النسخ عليها مصاحف متعدّدة و بثّها بين المسلمين. ففي هذه المرحلة كان عثمان في بدء الأمر زعمها هيّنة، و من ثمّ اختار لها جماعة غير أكفاء ثمّ لجأ إلى جماعة آخرين و فيهم الأكفاء، مثل سيّد القرّاء الصحابي الكبير أُبيّ بن كعب. و أرسل إلى الصحف التي جمع فيها القرآن أيّام خلافة أبي‌بكر ـ و هي كانت في بيت حفصة ـ للمقابلة عليها فأبت حفصة لأوّل أمرها أن تدفع إليه حتّىٰ عاهدها عثمان ليردّنّها فبعث بها إليه.[٢]

٣ـ مقابلة هذه المصاحف الموحّدة لغرض التأكّد من صحتها أوّلاً و عدم وجود اختلاف بينها ثانياً. ففي هذه المرحلة كان التساهل أوضح.

حدّث ابن أبي داود عن بعض أهل الشام، كان يقول: «مصحفنا و مصحف أهل البصرة أحفظ من مصحف أهل الكوفة، لأنّ عثمان لمّا كتب المصاحف بلغه قراءة أهل الكوفة على حرف عبدالله. فبعث إليهم بالمصحف قبل أن يعرض ـ أي: قبل مقابلته على سائر النسخ ـ و عرض مصحفنا و مصحف أهل البصرة قبل أن يبعث بهما».[٣]

و روي أيضاً: «إنّهم عندما فرغوا من نسخ المصاحف أتوا به إلى عثمان، فنظر فيه فقال: قد أحسنتم و أجملتم. أرىٰ فيه شيئاً من

١ـ تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٥٩ـ ١٦٠.

٢ـ المصاحف للسجستاني: ٩.

٣ـ المصاحف للسجستاني: ٣٥.

اللحن ـ لكن ـ ستقيمه العرب بألسنتها. ثمّ قال: لو كان المملي من هذيل والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا».[١]

قلت: ألم يكن كتاب الله العزيز الحميد جديراً بالاهتمام به ليكون خالياً من كلّ خطأ أو لحن؟! ثمّ ما هذا التمنّي الكاذب، و في استطاعته بدء الأمر أن يختار مملياً من هذيل و كتبة من ثقيف، و هو يعلم أنّ فيهم الجدارة والكفاءة.

و هذا التساهل أحد أسباب الاختلاف في القراءة فيما بعد كما سيأتي.

عدد المصاحف العثمانيّة:

قال ابن أبي داود: «كانت ستّة حسب الأمصار المهمّة ذوات المركزيّة الخاصّة: مكّة والكوفة والبصرة والشام والبحرين واليمن. و حبس السابعه ـ و كانت تسمّىٰ الأُمّ أو الإمام ـ بالمدينة».[٢] و زاد اليعقوبي: مصر و الجزيرة.[٣] و كان المصحف المبعوث إلى كلّ قطر يحتفظ عليه في مركز القطر، يستنسخ عليه و يرجع إليه عند اختلاف القراءة. و يكون هو حجّة. و مصحف المدينة كان مرجعاً للجميع بصورة عامّة. و روي: «أنّ عثمان بعث مع كلّ مصحف قارئاً يقرىء الناس على قراءة ذلك المصحف».[٤]

---

١ ـ المصاحف للسجستاني: ٣٤.

٢ ـ المصاحف للسجستاني: ٣٤.

٣ ـ تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٦٠.

٤ ـ مناهل العرفان: ١/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧.

تعريف المصاحف العثمانيّة:

١ ـ **الترتيب**: كانت المصاحف العثمانيّة ـ بصورة عامّة ـ ذات ترتيب خاصّ ـ و هو الترتيب الحاضر في المصحف الكريم ـ يقرب من ترتيب مصاحف الصحابه مع اختلاف يسير.

٢ ـ **النقط والتشكيل**: كانت المصاحف العثمانيّة خاليةً عن النقط والتشكيل و كان على القاري بنفسه أن يميّز بين الحروف المتشابهة ـ مثل الباء والياء والتاء والثاء ـ عند القراءة حسب ما يبدو له من قرائن. كما كان عليه أن يعرف هو بنفسه وزن الكلمة و كيفية إعرابها أيضاً. و من ثمّ كانت قراءة القرآن في الصدر الأوّل موقوفة على مجرّد السماع والنقل فحسب.

و هذا كان منشأ اختلاف القراءات إذ بطول الزمان ربّما كان يحصل اشتباه في النقل أو خلط في السماع مضافاً إلى تخلّل الأُمم غير العربيّة في الجزيرة و تضخّم جانبهم مطّرداً مع التوسعة في القطر الإسلامي العريض.

كان الخطّ عندما اقتبسه العرب من السريان والأنباط، خالياً من النقط و لاتزال الخطوط السريانيّة بلا نقط إلى اليوم. و لمّا كثر التصحيف في القراءات بازدحام القطر الإسلامي بأجانب عن اللغة العربية قام نصر بن عاصم و يحي بن يعمر تلميذا أبي الأسود الدّئلي بتنقيط المصحف. و ذلك في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق من قبل عبد الملك بن مروان (٧٥ ـ ٨٦ هـ).[1]

---

١ ـ دائرة المعارف القرن العشرين: ٣/ ٧٢٢، و مناهل العرفان: ١/ ٣٩٩، و تاريخ القرآن: ٦٨.

ثمّ إنّ القرآن في الصدر الأوّل كان محفوظاً في صدور الرّجال و مأموناً عليه من الخطأ واللّحن بسبب أنّ العرب كانت تقرؤه صحيحاً حسب سليقتها الفطرية التي كانت محفوظة لحدّ ذاك الوقت مضافاً إلى شدّة عنايتهم بالأخذ والتلقي عن مشايخ كانوا قريبي العهد بعصر النبوة. و لكن بعد منتصف القرن الأوّل حيث كثر الدخلاء ـ و هم أجانب عن اللغة العربيّة ـ مسّ الحاجة إلى وضع علامات تؤمن عليهم الخطأ واللحن. من ثمّ عزم أبو الأسود الدّئلي على تشكيل المصحف و ذلك في زمن ولاية زياد بن أبيه على الكوفة (٥٠ ـ ٥٣ هـ).

قال جلال الدين السيوطي: «كان الشكل في الصدر الأوّل نقطاً، فالفتحة نقطة على أوّل الحرف والضمة نقطة على آخره والكسرة تحت أوّله».[١] و في الأغلب يكتبونها بلون غير لون خط المصحف والأكثر يكتبونها بلون أحمر. والظاهر أنّ تبديل النقط السود إلى نقطة ملوّنة حدث بعد وضع الإعجام للفرق بين النقطة التي هي علامة الحركة والتي هي علامة الإعجام. و أوّل من وضع الهمز والتشديد و...الخليل بن أحمد الفراهيدي.[٢]

و هكذا كلّما امتدّ الزمان بالناس ازدادت عنايتهم بالقرآن و تيسير رسمه من طور إلى طور حتّى إذا كانت نهاية القرن الثالث الهجري بلغ

---

١ ـ الإتقان: ٢/ ١٧١.

٢ ـ الإتقان: ٢/ ١٧١ و كتاب النقط لأبي عمرو الداني: ١٣٣.

الرّسم ذروته في الجودة والحسن.

و أمّا وضع علائم التحزيب والتجزئة فقيل: «إنّ المأمون العباسي هو الذي أمر بذلك». و قيل: «إنّ الحجّاج فعل ذلك».[١]

و ينتصف القرآن على الفاء من قوله تعالىٰ: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾[٢].

و عدد آياته ـ في قول عليؑ ـ: ٦٢١٨ آية و في رواية: ٦٢٣٦ آية.

و قد اشتهر تحزيب القرآن و تجزءته إلى ثلاثين جزءً تسهيلاً لقراءته في المدارس و غيرها.

و أطول سورة في القرآن هي البقرة، و أقصرها الكوثر.

و أطول آية في القرآن آية الدين (البقرة: ٢٨٢). و أقصرها ﴿وَالضُّحىٰ﴾،[٣] ثمّ ﴿وَالفَجْرِ﴾.[٤]

و أطول كلمة في القرآن ﴿فَأَسْقَيْناكُمُوهُ﴾.[٥]

٣ ـ مخالفات في رسم الخطّ: إنّ الخطّ وضع ليعبّر عن المعنى بنفس اللفظ الذي ينطق به، وعليه فيجب أن تكون الكتابة مطابقة للّفظ المنطوق به تماماً ليكون الخطّ مقياساً للّفظ من غير زيادة أو نقصان. غير أنّ أساليب الإنشاء والكتابة تختلف عن هذه القاعدة بكثير و لكن لا بأس بذلك مادام

---

١ ـ راجع: البرهان للزركشي: ١/ ٢٤٩-٢٥٢.

٢ ـ الكهف: ١٩.

٣ ـ الضحىٰ: ١.

٤ ـ الفجر: ١.

٥ ـ الحجر: ٢٢.

الاصطلاح العامّ جارياً عليه، فلا يسبّب اشتباهاً أو التباساً في المراد.

و رسم الخط في المصحف الشريف تخلّف حتّى عن المصطلح العام. ففيه كثير من أخطاء إملائيّة و تناقضات في رسم الكلمات، بحيث إذا لم يكن سماع و تواتر في قراءة القرآن ـ و لا يزال المسلمون يتوارثونها جيلاً بعد جيل، في دقّة و عناية بالغة ـ لأصبح قراءة كثير من كلمات القرآن ـ قراءة صحيحة ـ مستحيلة. و يرجع السّبب ـ كما تقدّم ـ إلى عدم تسلّط العرب بفنون الخطّ و أساليب الكتابة ذلك العهد. بل و لم يكونوا يعرفون الكتابة غير عدد قليل خطّاً بدائياً رديئاً كما يبدو على خطوط باقية من الصدر الأوّل.[1] و لم يمسّوا القرآن بيد إصلاح بعد ذلك قطّ، لئلّا يقع القرآن عرضة تحريف أهل الباطل بعدئذ بحجّة الإصلاح.

و ليس وجود أخطاء إملائيّة يمسّ كرامة القرآن:

أوّلاً: القرآن ـ في واقعه ـ هو الذي يقرأ لا الّذي يكتب. فما دامت القراءة باقية على سلامتها الأُولىٰ لاتضرّ الكتابة. و لا شكّ أنّ المسلمين احتفظوا علىٰ نصّ القرآن بلفظه المقروء صحيحاً.

ثانياً: تخطئة الكتاب هي استنكار على الكتبة الأوائل و ليست قدحاً في نفس الكتاب الّذي ﴿لايَأتِيْهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.[2]

---

١ ـ راجع: مقدّمة ابن خلدون: ٤١٩ ـ ٤٣٨.

٢ ـ فصّلت: ٤٢.

ثالثاً: إن وجود أخطاء ظلّت باقية لم تتبدّل، يفيد المسلمين في ناحية احتجاجهم بها على سلامة كتابهم من التحريف عبر القرون. إذ أنّ أخطاء إملائية لا شأن لها، و كان جديراً أن تمدّ إليها يد الإصلاح و مع ذلك بقيت سليمة عن التغيير، تكريماً بمقام السلف فيما كتبوه، فأجدر بنصّ الكتاب العزيز أن يبقى بعيداً عن احتمال التحريف والتبديل رأساً.

نماذج من مخالفات الرّسم:

١ ـ ﴿يَأْتِيهِمْ أَنْبَؤُا﴾.[١] والصحيح: أَنْباءُ.

٢ ـ ﴿يَنْؤَنَ عَنْهُ﴾.[٢] والصحيح: يَنْأَوْنَ عَنْهُ.

٣ ـ ﴿وَلَاتَقُولَنَّ لِشَايْءٍ﴾.[٣] والصحيح: لِشَيْءٍ.

٤ ـ ﴿أَوْلَأَاْذْبَحَنَّهُ﴾.[٤] والصحيح: لَأَذْبَحَنَّهُ.

٥ ـ ﴿وَجِاْىَءَ بِالْنَبِيِّيْنَ﴾.[٥] والصحيح: وَجِيْءَ...

٤ ـ مناقضات في الرسم العثماني: والشيء الأغرب وجود مناقضات في رسم المصحف، بينما الكلمة مثبتة في موضع برسم خاصّ و إذا هي بذاتها مرسومة في موضعٍ آخر بما يخالفها، و إليك نموذجاً من ذلك التناقض الغريب:

---

١ ـ الأنعام: ٥.

٢ ـ الأنعام: ٢٦.

٣ ـ الكهف: ٢٣.

٤ ـ النمل: ٢١.

٥ ـ الزمر. ٦٩.

الكلمة برسمها الملحون	الكلمة برسمها الصحيح
١ ـ ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ﴾.[١]	﴿إذاً لَاتَّخذُوكَ﴾.[٢]
٢ ـ ﴿فقالَ الضُعَفْوُا﴾.[٣]	﴿لَيْسَ عَلىٰ الضُعَفاءِ﴾.[٤]
٣ ـ ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ﴾.[٥]	﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ﴾.[٦]
٤ ـ ﴿عَلىٰ بَيِّنَتٍ مِنْهُ﴾.[٧]	﴿عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّه﴾.[٨]
٥ ـ ﴿فَقالَ المَلَوُا﴾.[٩]	﴿وَقالَ الْمَلَأُ﴾.[١٠]

٥ ـ اختلاف المصاحف:

كانت الغاية من إرسال المصاحف إلى الآفاق هي وحدة كلمة الأُمّة، لئلّا تختلف و ليجتمع المسلمون على قراءة واحدة و نبذ ما سواها. غير أنّ الواقعيّة بدت بوجه آخر واختلفت المصاحف بعضها مع البعض. الأمر

---

١ ـ الكهف: ٧٧.

٢ ـ الإسراء: ٧٣.

٣ ـ إبراهيم: ٢١.

٤ ـ التوبة: ٩١.

٥ ـ فاطر: ٤٣.

٦ ـ الفتح: ٢٣.

٧ ـ فاطر: ٤٠.

٨ ـ محمّد ﷺ: ١٤.

٩ ـ المؤمنون: ٢٤.

١٠ ـ المؤمنون: ٣٣.

الذي يدلّ بوضوح أنّ اللجنة تساهلت في أمر المقابلة ـ أيضاً ـ فلم يأخذوا بالدقّة الكاملة في جانب توحيد المصاحف المرسلة إلى الآفاق. و صار هذا الاختلاف في المصاحف من أهمّ أسباب نشوء الاختلاف القرائي فيما بعد. و من ثمّ ظهرت قراءة مكّة و قراءة المدينة و قراءة البصرة و قراءة الكوفة و قراءة الشام و هكذا... الأمر الذي كان كرّاً على ما فرّوا منه.

الأسئلة

١. ما هي العلّة الأساسيّة لاختلاف المصاحف؟
٢. أوّل من فكّر في توحيد المصاحف من كان؟ و أي سبب حمله على ذلك؟
٣. ماذا فعل حذيفة بن اليمان بعد رجوعه من غزو أرمينيّة؟
٤. ما الدليل على موافقة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لتوحيد المصاحف؟
٥. ما هو موقف الصحابة بالنسبة إلى توحيد المصاحف؟
٦. لماذا خالف ابن مسعود توحيد المصاحف؟
٧. من هم اللجنة التي انتدبها عثمان لتوحيد المصاحف؟
٨. في أيّ سنة وقع توحيد المصاحف؟
٩. ما هي المراحل الأساسيّة التي اختارت اللجنة في عملها لتوحيد المصاحف؟
١٠. هل لجنة توحيد المصاحف حازت على النجاح في عملها؟

١١. كم عدد المصاحف العثمانية؟ و لأيّ بلاد أُرسلت؟
١٢. ما هي مميّزات المصاحف العثمانيّة؟
١٣. كيف كان ترتيب المصاحف العثمانيّة؟
١٤. أوّل من نقّط المصحف من كان؟
١٥. أوّل من شكّل المصحف من كان؟
١٦. لماذا كانت القراءة في الصدر الأوّل موقوفة على مجرّد السماع؟
١٧. ماذا فعل الخليل بن أحمد الفراهيدي بالنسبة إلى القرآن؟
١٨. من الّذي وضع علائم التحزيب و التجزئة؟
١٩. على أيّ حرف ينتصف القرآن؟
٢٠. كم عدد آيات القرآن؟
٢١. ما هي أطول السور في القرآن؟ و ما هي أقصرها؟
٢٢. ما هي أطول آية في القرآن؟ و ما هي أقصرها؟
٢٣. ما هي أطول كلمات القرآن؟
٢٤. ما هي العلّة الأساسيّة في وجود مناقضات في رسم خط القرآن؟
٢٥. لماذا لم يمسّوا القرآن بيد إصلاح رسم خطّه؟
٢٦. هل وجود أخطاء إملائيّة تمسّ بكرامة القرآن؟ لماذا؟
٢٧. أُذكر نموذجاً من مخالفات رسم الخطّ و نموذجاً من المناقضات في الرسم العثماني.
٢٨. ما السبب في حدوث الاختلاف بين المصاحف بعد توحيدها؟

الإناقة والتجويد

لم يزل القرآن ـ منذ الصدر الأوّل ـ في طور التجويد والتحسين، لا سيّما في ناحية كتابته و تجميل خطّه من جميل إلى أجمل. و قد أسهم الخطّاطون النَبار في تجويد خطّ المصاحف و تحسين كتابتها. و أوّل من تنوّق في كتابة المصحف و تجويد خطّها، هو خالد بن أبي الهياج ـ صاحب أمير المؤمنين علي عليه السلام ـ (م ح ١٠٠ هـ) و كان مشهوراً بجمال خطه و كمال ذوقه. و يقال: إنّ سعداً ـ مولىٰ الوليد و حاجبه ـ اختاره لكتابة المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦) فكان هو الذي خطّ قبلة المسجد النبويّ بالمدينة بالذهب من سورة الشمس إلى آخر القرآن.[1]

و كان الخطّاطون يكتبون المصاحف بالخطّ الكوفي حتّى أواخر القرن الثالث ثمّ حلّ محلّه خط النسخ الجميل في أوائل القرن الرابع على يد الخطّاط الشهير محمد بن على بن الحسين بن مُقْلَة (٢٧٢ ـ ٣٢٨). و قد بلغ الخطّ العربي ذِروته في الجودة و الحسن في القرن السابع على يد الخطّاط

---

١ ـ تاريخ اليعقوبي: ٣/ ٣٠ و ٣٦.

المستعصمي ياقوت بن عبدالله الموصلىّ (م ٦٨٩).

و هكذا صارت المصاحف تكتب على أُسلوب خطّ ياقوت حتّى القرن الحادي عشر. و منذ مفتتح القرن الثاني عشر اهتمّ الأتراك العثمانيّون عنايتهم بالخطّ العربي الإسلامي فجعل الخطّ العربي يتطوّر على أيدي الخطّاطين الفرس الّذين استخدمهم العثمانيُّون في امبراطوريّتهم. و قد نقل السلطان سليم جميع الخطّاطين إلى عاصمته، و أضافوا للخطّ العربيّ أنواعاً جديدة لازالت تستعمل في الكتابات الدارجة كالخطّ الرقعي والخطّ الديواني والخطّ الطغرائي والخطّ الإسلامبولي و غيرها.

أمّا طباعة المصحف الشريف فقد مرّت ـ ككتابته خطاً ـ بأطوار التجويد والتحسين. و أوّل دولة إسلاميّة قامت بطبع القرآن، هي إيران.[1] طبعت طبعتين حجريّتين و منقّحتين في حجم كبير مع ترجمة موضوعة تحت كلّ سطر من القرآن و مفهرستين بعدّة فهارس. إحداهما كانت في طهران سنة ١٢٣٤هـ والأُخرى في تبريز ١٢٤٨هـ.

الأسئلة

١. ماذا فعل خالد بن أبي الهيّاج بالقرآن؟
٢. ماذا فعل ابن مقلة بالقرآن؟
٣. ماذا فعل السلطان سليم بالنسبة إلى خطّ القرآن؟
٤. أيّ دولة إسلامية قامت بطبع القرآن لأوّل مرّة؟

---

١ ـ الدكتور صبحي الصالح، مباحث فى علوم القرآن: ٩٩.

القراءات في نشأتها و تطوّرها

سبق أنّ الجماعة الّذين انتدبهم عثمان لمسألة توحيد المصاحف، لم يكونوا أكفاء لهذا الأمر الخطير، و من ثمّ وقعت في نفس تلك المصاحف أخطاء إملائية و مناقضات و بعض الاختلاف، الأمر الّذي أعاد على المسلمين اختلافهم في قراءة القرآن. كان عثمان قد بعث مع كلّ مصحف من يقرئ الناس على الثبت الموحّد في تلك المصاحف ـ على حساب أنّها موحّدة ـ و كان هؤلاء يقرّئون الناس في كلّ قطر على حسب المصحف المرسل إليهم، و من ثمّ عاد محذور الاختلاف نظراً لوجود اختلاف في ثبت تلك المصاحف، مضافاً إلى عوامل أُخرىٰ ساعدت على هذا الاختلاف.[1] و من هنا نشأ اختلاف قراءة الأمصار بدلاً من اختلاف القرّاء الذي كان قبل ذلك. فكانوا يقولون: قراءة مكّة، قراءة الشام، قراءة المدينة، قراءة الكوفة، قراءة البصرة، و هكذا.

---

١ ـ راجع: تهذيب الأسماء للنووي: ق ١، ص ٢٥٧.

عوامل نشوء الاختلاف

لا شك أنّ اختلاف مصاحف الأمصار كان أهمّ عوامل نشوء الاختلاف القرائي. و هناك ـأيضاًـ عوامل أُخرىٰ ساعدت على هذا الاختلاف نذكر منها ما يلي:

١ ـ **بداءة الخطّ**: كان الخطّ عند العرب في ذلك الزمان في مرحلة بدائيّة، و من ثمّ لم تستحكم أُصوله و لم تتعرّف العرب إلى فنونه والإتقان من رسمه و كتابته الصحيحة، و كثيراً ما كانت الكلمة تكتب على غير قياس النطق بها. كانوا يكتبون الكلمه و فيها تشابه و احتمال وجوه، فالنون الأخيرة كانت تكتب بشكل لايفترق عن الراء و كذا الواو عن الياء. كما ربّما كانوا يفكّكون بين حروف كلمة واحدة فيكتبون الياء منفصلة عنها كما في «يَسْتَحْيي» أو يحذفونها رأساً كما في «إيلافِهِم» كتبوها «إلافِهِم» بلا ياء. الأمر الذي أشكل على بعض القرّاء واختلف القراءات. و لذلك قرأ بعضهم: «لِيْلافِ قريشٍ» بحذف الهمزة و إثبات الياء. و «إلافِهِم رِحْلةَ الشِّتاءِ والصَّيفِ» بإثبات الهمزة وحذف الياء. و قرأ بعضهم «ألْفِهِم» بالهمزة و سكون اللام.

٢ ـ **الخلوّ عن النقط**: كان الحرف المعجم يكتب كالحرف المهمل بلا نقط فلا يفرّق بين السين والشين في الكتاب و لا بين العين والغين أو الراء والزاي و...فكان على القارئ نفسه أن يميّز بحسب القرائن الموجودة أنّها باء أو ياء...

من ذلك قراءة ابن عامر و حفص: ﴿ويُكَفِّرُ عَنْكُمْ﴾[١] و قرأ الباقون: «نُكَفِّرُ».

٣ ـ التجريد عن الشكل: كانت الكلمة تكتب عارية عن علائم الحركات القياسيّة في وزنها و في إعرابها و ربّما يحتار القارئ في وزن الكلمة و في حركتها فيما إذا كانت الكلمة محتملة لوجوه، مثلاً: لم يكن يدرى «اعلم» أمر أم فعل مضارع متكلم. قرأ حمزة و الكسائي: «قالَ اعْلَمْ أنّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ»[٢] بصيغه الأمر و قرأ الباقون بصيغة المتكلّم.

٤ ـ إسقاط الألفات: كان الخطّ العربيّ الكوفيّ منحدراً عن خطّ السريان و كانوا لا يكتبون الألفات الممدودة في ثنايا الكلم، و قد كتبوا القرآن بالخطّ الكوفي على نفس المنهج. الأمر الذي أوقع الاشتباه في كثير من الكلمات. قرأ نافع و أبو عمرو و ابن كثير: «و ما يُخادِعُونَ إلّا أنْفُسَهُم»،[٣] نظراً إلى أنّ يخادعون في صدر الآية قد كتب بلا ألف فزعموهما من باب واحد.

أضف إلى ذلك بعض الزيادات المخلّة بالمقصود إذا لم يكن القارئ عارفاً بأصل النصّ من سماع خارج. كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيْداً أو لَأَذْبَحَنَّهُ﴾[٤]. فزادوا ألفاً أثناء كلمة واحدة فربّما يحسب القارئ

---

١ ـ البقرة: ٢٧١.

٢ ـ البقرة: ٢٥٩.

٣ ـ البقرة: ٩.

٤ ـ النمل: ٢١.

الجاهل بالواقع أنّها لا النافية في حين أنّها لام تأكيد والهمزة حرف المتكلّم والألف زائدة.

٥ ـ **تأثير اللهجة**: لا شكّ أنّ كلّ أُمّة ـ وإن كانت ذات لغة واحدة ـ فإنّ لهجاتها تختلف حسب تعدّد القبائل المنشعبة. و هكذا كانت القبائل العربيّة تختلف مع بعضها في اللهجة و في التعبير والأداء. من ذلك اختلافهم في الحركات، مثل «نستعين» ـ بفتح النون و كسرها ـ قال الفرّاء: هي مفتوحة في لغة قيس و أسد. و غيرهم يقولونها بكسر النون.[1] واختلافهم في الحركة والسكون، مثل قولهم: «معكم» بفتح العين و سكونها. واختلافهم في الإعراب نحو «ما» النافية، فإنّها غير عاملة عند تميم و عاملة عمل ليس عند الحجازيين. و غير تلك من موارد الاختلاف.

٦ ـ **تحكيم الرأي والاجتهاد**: هذا أكبر العوامل تأثيراً في اختيارات القرّاء، كان لكلّ قارئ رأي يعتمده في القراءة التي يختارها وكانوا ـ أحياناً ـ مستبدّين بآرائهم و لو خالفهم الجمهور أو أهل التحقيق. قرأ ابن كثير و أبو عمرو: ﴿فَلارَفَثَ وَلافُسُوقَ﴾[2] بالتنوين والرفع. و قرأ الباقون بالفتح من غير تنوين. قال مكّي: وجه القراءة الأُولى: أنّ «لا» بمعنى «ليس» والخبر محذوف. و وجه الثانية: أنّ «لا» نفي للجنس دلالة على النفي العامّ. لأنّ التي بمعنى ليس لاتنفي إلّا واحدة والمقصود في الآيه العموم.[3]

---

١ ـ أُنظر كتاب سيبويه: ٢/ ٢٥٧.

٢ ـ البقرة: ١٩٧.

٣ ـ الكشف عن وجوه القراءات السبع: ١/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦.

٧ ـ غلوّ في الأدب: من العوامل التي كانت تبعث على اختيار قراءة ـ و لو كانت شاذّة خارجة على المشهور أو مخالفة لرسم الخطّ ـ هو غلّو القارئ فيما اختصّ به من الأدب العربي معجباً بنفسه فيزعم الصحيح فيما رآه، وفقاً للقواعد العربية التي تسلّمها كلّيات لا ينخرمن بوجه. من ذلك ما نجده في أبي بكر العطار المقرئ النحوي (٢٦٥ ـ ٣٥٥). كان أعلم دهره بالنحو والقراءة و من ثمّ لم يكن يتوجّه بالمأثور من القراءات و كان يختار لنفسه قراءة يراها صحيحة و مناسبة في سياق معنى الآية ففي قوله تعالى: ﴿فَلَمّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾[١]. قرأ «نَجِباً»[٢] جمع «نجيب». فكان مآل أمره أن ثارت عليه ضجّة الفقهاء و حاكمه الأمير، فلم يستطع الدّفاع فأراد ضربه لكنّه استسلم أخيراً فاستتيب.[٣]

٨ ـ شذوذ نفسي: و هو ما يرجع إلى عللٍ روحيّة، يروم أصحابها الاشتهار بمخالفة المشهور، أو عُقَدٍ نفسيّة تنفجر في وجه الأعراف التقليديّة، فتتمثل في قالب الاختيارات الشاذّة. كما ذكرنا في أبي بكر العطّار.

٩ ـ عوامل أُخرى: زعموها ذات صلة بتكييف قراءة القرآن أو اختيار قراءة غير قراءة الآخرين:

---

١ ـ يوسف: ٨٠.

٢ ـ إعجاز القرآن للرافعي: ٥٧.

٣ ـ النشر: ١/ ١٧.

أ. **زعم خطأ النسخة**: زعم بعضهم في قوله تعالى: ﴿وَقَضىٰ رَبُّكَ﴾.[١] أنّها كانت «وَوَصّىٰ رَبُّكَ» فاستمدّ الكاتب مداداً كثيراً فالتزقت الواو بالصّاد.[٢]

ب. **تخليط التفسير بالنصّ**: كأكثر القراءات المنسوبة إلى ابن مسعود و أُبيّ بن كعب و غيرهما، ممّا فيها زيادة ـ تفسيريّه ـ نحو قوله تعالىٰ: ﴿كَانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً [فاختلفوا] فَبَعَثَ اللهُ النَبِيِّيْنَ مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ وأَنْزَلَ معهم الكتابَ بالحقِّ فِيما اخْتَلَفُوا فيه﴾.[٣] هذه الزيادة ترفع إبهاماً عن الآية: هل كانت بعثة الأنبياء سبباً للاختلاف، أم كان العكس؟ و ذيل الآية يعيّن هذا الأخير. و جاءت الزّيادة توضّح هذا الجانب أكثر. و ربّما جاء قارئ متأخّر فزعمها قراءة خاصّة.

ج. **أهداف سياسيّة**: قرأ ابن الخطّاب: ﴿والسّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِن المُهاجِرِيْنَ والأنصارُ ـ بالرّفع ـ الّذِيْنَ اتَّبَعُوهُمْ بِإحْسانٍ﴾[٤] ـ بإسقاط الواو ـ. كان يعتقد اختصاص المهاجرين بالسابقيّة و أنّ فضل الأنصار في متابعتهم. و بذلك صرّح لمن أنكر عليه قراءته هذه.[٥]

---

١ ـ الإسراء: ٢٣.

٢ ـ الإتقان: ١/ ١٨٠. والدر المنثور: ٧/ ١٧٠.

٣ ـ البقرة: ٢١٣.

٤ ـ التوبة: ١٠٠.

٥ ـ أُنظر: تفسير الطبري: ١١/ ٧.

د. **نظرات كلاميّة**: قرأ بعض المعتزلة: ﴿وَ كَلَّمَ اللهَ مُـوسىٰ تَكْـلِيْماً﴾[١] بنصب لفظ الجلالة،[٢] زاعماً أنّه تعالى لا يتكلّم على حقيقته.

هـ. **عدم معرفة القاري بقواعد اللّغة والأدب**: فربّما يـلحن في قـراءة القرآن و يعدّ ذلك قراءة، نظراً لموقعه الاجتماعي المعروف، كقراءات منسوبة إلى أبي حنيفة ـو هو مشهور باللّحن في كلامه ـ. يحكى عنه: أنّه قرأ ﴿إنّما يَخشى اللهُ ـبالرّفع ـ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءَ ـبالنصب ـ﴾.[٣] و تنسب إلى عمر بن عبد العزيز ـأيضاً ـ.[٤] و ربّما توجّه بأنّ معنى الخشية ـفي هذه القراءة ـ هو التعظيم والتكريم. و هي محاولة لتوجيه قراءة شاذّة.[٥]

والقراءات من هذا القبيل ساقطة رأساً. والمراد من القراءة في موضوع بحثنا هي التي تبتني على اجتهاد صاحبها، و لو عن خطأ في استنباطه يراه صحيحاً في نظره.

أنواع اختلاف القراءات

قال ابن قتيبة: قد تـدبّرت وجـوه الخـلاف في القـراءات فـوجدتها سبعة أوجه:

١ـ النساء: ١٦٤.

٢ـ الإشارات للقسطلاني: ١/ ٦٦.

٣ـ فاطر: ٢٨.

٤ـ راجع: القرطبي: ١٤/ ٣٤٤.

٥ـ أُنظر: البرهان: ١/ ٣٤١.

الأوّل: الاختلاف في إعراب الكلمة، أو في حركة بنائها بما لايزيلها عن صورتها في الكتاب و لايغيّر معناها...نحو قوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾[١] ـ بضمّ الباء و سكون الخاء ـ. و«البَخَل» ـ بفتح الباء والخاء ـ.[٢]

الثاني: أن يكون الاختلاف في إعراب الكلمة و حركات بنائها بما يغيّر معناها، و لايزيلها عن صورتها في الكتاب. نحو قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾[٣] ـ بتشديد القاف ـ. و«تَلْقُوْنَهُ» ـ بالتخفيف ـ.[٤]

الثالث: أن يكون الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها، بما يغيّر معناها و لايزيل صورتها، نحو قوله تعالى: ﴿وانْظُرْ إِلَى العِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها﴾[٥] و «نُنْشِرُها».[٦]

الرابع: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغيّر صورتها في الكتاب، و لايغيّر معناها، نحو قوله تعالى: ﴿كَالعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾[٧] و «كَالصُّوفِ الْمَنْفُوشِ».[٨]

---

١ ـ النساء: ٣٧.

٢ ـ هي قراءة حمزة والكسائي. والأُولى قراءة الباقين. الإتحاف: ص٣٥٩.

٣ ـ النور: ١٥.

٤ ـ الثانية قراءة ابن السميقع. القرطبي: ١٢/ ٢٠٤. والقراءات الشاذّة: ١٠٠.

٥ ـ البقرة: ٢٥٩.

٦ ـ الأُولى قراءة ابن عامر و عاصم و حمزة والكسائي، والثانية قراءة الباقين. الاتحاف: ص١٦٢.

٧ ـ القارعة: ٥.

٨ ـ الثانية قراءة ابن مسعود. الكشاف: ٢/٥٥٨.

الخامس: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها و معناها، نحو قوله تعالى: ﴿طَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾[١] و «طَلْعٍ مَنْضُودٍ».[٢]

السادس: أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير، نحو قوله تعالى: ﴿وَجاءَتْ سَكْرَةُ المَوتِ بالحَقِّ﴾.[٣] «و جاءَتْ سكرةُ الحَقِّ بالموتِ».[٤]

السابع: أن يكون الاختلاف بالزياده والنقصان، نحو قوله تعالى: ﴿و ما عَمِلَتْهُ أيْدِيهِمْ﴾[٥] و «ماعَمِلَتْ أيْدِيْهِمْ».[٦]

الأسئلة

١. ما هي عوامل نشوء الاختلاف في القراءات؟

٢. ما هو تأثير بداءة الخط في اختلاف القراءات؟

٣. ما هو تأثير الخلوّ عن النقط والتجريد عن الشكل في اختلاف القراءات؟

٤. كيف أثّر إسقاط الألفات في اختلاف القراءات؟

---

١ ـ الواقعة: ٢٩.

٢ ـ الثانية منسوبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام. القراءات الشاذّة: ١٥١. و راجع: تفسير القرطبي: ١٧/ ٢٠٨.

٣ ـ ق: ١٩.

٤ ـ الثانية قراءه أبي بكر عند ماحضرته الوفاة في قصّة مع ابنته عائشة. راجع: القرطبي: ج ١٧، ص ١٢ ـ ١٣. والقراءات الشاذّة: ص ١٤٤.

٥ ـ يس: ٣٥.

٦ ـ الثانية في مصاحف أهل الكوفة. راجع: الكشّاف: ٢/ ٢٥٢.

٥. هل يكون للّهجة أثر في اختلاف القراءة؟
٦. ما هو أكبر العوامل في اختيار القراءة؟
٧. ما المراد من الغلوّ في الأدب و كيف كان أثره في اختلاف القراءات؟
٨. أُذكر آية أثّر في قراءتها زعم خطأ النسخة.
٩. كيف أثّر تخليط التفسير بالنص في اختلاف القراءات؟
١٠. هل هناك دور لأغراض سياسيّة في اختلاف القراءات؟
١١. أُذكر آية قد أثّرت في قراءتها آراء كلاميّة.
١٢. ما هي علّة اختلاف القراءة في قوله تعالىٰ: «إنّما يخشى اللهَ مِنْ عبادِهِ العلماءُ»؟
١٣. أُذكر وجوه الخلاف في القراءة من جهة إعراب الكلمة أو حركة بنائها، مع ذكر المثال.
١٤. أُذكر وجوه الخلاف في القراءة من جهة حروف الكلمة دون إعرابها، مع ذكر المثال.
١٥. أُذكر وجوه الخلاف في القراءة من حيث التقديم و التأخير والزيادة والنقصان، مع ذكر المثال.

تواتر القراءات

التواتر مصطلح في «معرفة الحديث» حيث يقسّم إلى متواتر و مشهور و مستفيض و آحاد و...

والحديث المتواتر: ما بلغ رجال سنده في جميع الطبقات حدّاً في الكثرة والانتشار، بحيث يؤمن ـ قطعيّاً ـ تواطؤهم على الكذب. و من ثمّ يجب في الحديث المتواتر توفّر الشروط التالية:

١ ـ اتّصال الإسناد من الراوي الأخير إلى مصدر الحديث اتّصالاً تامّاً.

٢ ـ بلوغ عدد الرواة والناقلين حدّاً من الكثرة والانتشار ـ فوق الاستفاضة والاشتهار ـ بما يؤمن تواطؤهم على الكذب.

٣ ـ أن يحتفظ بنفس الحجم من كثرة النقلة في كلّ طبقة، فالكثرة تنقل عن الكثرة و هكذا إلى المصدر الأوّل.

ومسألة تواتر القراءات ـ إن تسلّمناه ـ إنّها متواترة عن القرّاء أنفسهم، أمّا من قبلهم فإلى طبقة الصحابة و عهد رسول الله ﷺ فلا تعدو

أخباراً آحاداً لو كان هناك إسناد، وإلّا فالأمر أفضح. هذا عبدالله بن كثير ـ ثاني القرّاء قرباً إلى عهد الصّحابة ـ (م ١٢٠) لم يذكروا في رجاله سوى ثلاثة. و كذا عاصم بن أبي النجود ـ ثالث القرّاء قرباً ـ (م ١٢٨) رجاله اثنان. و أبعد القراء ـ زماناً ـ بعهد الصحابة هو الكسائي (م ١٨٩) ذكروا له ثلاثة رجال. نعم ذكروا لنافع خمسة رجال و لحمزة سبعة و لأبي عمرو اثني عشر و ذلك أيضاً لا يثبت التواتر لأنّها آحاد في مصطلح الفنّ كما لا يخفى.

هذا مع الغض عن الخدشة في رجال هذه الأسانيد ممّن ليس له صلاحية الإقراء أو ليس من شأنهم التصدّي لإقراء الناس. مثلاً ذكروا من شيوخ حمزة، الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام. لكن مقام إمامته الكبرى تشغله عن التصدّي لهكذا أمور صغيرة كما لم نر أثراً من قراءة الإمام عليه السلام في قراءة حمزة و لا هو نسبها إلى الإمام عليه السلام.

و أيضاً أنّه يجب في التواتر استواء الطرفين والواسطة في عدد الرجال الناقلين في حين أنّ النقل المتواتر المتأخّر عن القاري ينتهي اليه وحده. و من ثمّ قال سيّدنا الأُستاذ الإمام الخوئي رحمه الله: «اتّصال أسانيد القراءات بالقرّاء أنفسهم يقطع تواتر الأسانيد، حتّى لو كان رواتها في جميع الطبقات ممّن يمتنع تواطؤهم على الكذب، فإنّ كلّ قارىء ينقل قراءته بنفسه».[1]

---

١ ـ البيان: ١٦٥.

أدلّة عدم تواتر القراءات

١ ـ إنكارات على القرّاء: أقوى دليل يرشدنا إلى عدم اعتراف أئمّة السلف بتواتر القراءات، إنكاراتهم على قراءات كثير من المشهورين، حتّى السبعة. و كيف يجرأ مسلم محافظ أن ينكر قراءة يرى تواترها عن النبيﷺ؟ فإنّ ذلك يدلّ على أنّ ما أنكروه شيء منسوب إلى نفس القرّاء، إنكاراً عليهم لا إنكاراً لشيء ثبت عن رسول اللهﷺ قطعيّاً. تدلّ على ذلك التعليلاتُ الواردةُ في هذه المناسبات تبريراً للإنكارات المزبورة. هذا أحمد بن حنبل كان ينكر على حمزة كثيراً من قراءاته و كان يكره أن يصلّى خلف من يقرأ بقراءة حمزة.[١] و قد أنكر أئمّة النحو والأدب كثيراً من قراءات القرّاء الكبار. كما أنكر المبرِّد قراءة أهل المدينة: «هٰؤلاءِ بَناتِي هُنَّ أطْهَرَ لَكُم».[٢] ـ بنصب أطهر ـ وقال: «هو لحن فاحش، إنّما هي قراءة ابن مروان ولم يكن له علم بالعربيّة».[٣]

أضف إلى ذلك إنكارات العامّة على الكثير من قراءات السبعة و ربّما كانوا يضطرّونهم إلى النزول وفق الرأي العام، ممّا يدلّ على أنّ اختيارهم الأوّل كان عن اجتهادٍ لا غير. قال ابن مجاهد: قال لي قنبل (أحد راويي ابن كثير): قال القواس في سنة ٢٣٧: إلق هذا الرّجل (يعني البزّي، الراوي الآخر لابن كثير) فقل له: هذا الحرف ليس من قراءتنا ـ يعني: «وَما

---

١ ـ مناهل العرفان: ١/ ٤٥٢ عن منجد المقرئين لابن الجزري.

٢ ـ هود: ٧٨.

٣ ـ المقتضب ٤/ ١٠٥.

هُوَ بِمَيِّتٍ»،[١] مخفّفاً ـ. و إنّما يخفّف من الميّت من قد مات، و أمّا من لم يمت فهو مشدّد فلقيت البزّي فأخبرته فقال: «قد رجعت عنه».[٢]

٢ ـ قراءات شاذّة من السبعة: لدينا ـ مضافة إلى ما سبق ـ قراءات من السبعة رميت بالشذوذ لمخالفتها القياس أو وقوعها موضع إنكار عامّة المسلمين، ممّا يدلّ على أنّها اختيارات اجتهاديّة رآها أصحابها، خطأ أو لقلّة المعرفة بمقاييس الكلام الصحيح و من ثمّ رفضها الأئمّة المحقّقون و الحفّاظ الضابطون فاتّسمت بالشذوذ. و منع الفقهاء من القراءة بها في الصلاة أو في غيرها بسمة كونها قرآناً.

من ذلك قراءة حمزة: «مَكْرُ السَّيِىءْ»[٣] بإسكان الهمزة في الوصل.[٤] و قراءة نافع و ابن كثير و ابن عامر «لَيْكَةَ»[٥] بلام مفتوحة من غير همز بعدها و لا الف قبلها و فتح التاء و قرأ الباقون «الأيْكَةِ» بالألف واللام مع الهمزة و خفض التاء.[٦] و أمثال هذه القراءات كثير يجدها الباحث في كتب القراءات.

٣ ـ تعاليل و حجج اجتهاديّة: ذكر أبو محمّد مكّي بن أبي طالب في

---

١ ـ إبراهيم: ١٧.

٢ ـ مناهل العرفان: ١/ ٤٥٢ عن منجد المقرئين لابن الجزري.

٣ ـ فاطر: ٤٣.

٤ ـ التيسير: ١٨٢.

٥ ـ الشعراء: ١٧٦.

٦ ـ الاتحاف: ٣٣٣.

كتابه الكبير «الكشف عن وجوه القراءات السبع» حججاً و تعاليل لمختلف القراءات بصورة مستوعبة كان اعتمدها القراء في اختياراتهم، كلّ حسب اجتهاده الخاصّ و ملاحظته الخاصّة من غير اعتبار نقل أو سماع:

منها قوله تعالى: ﴿آياتٌ لِلسّائِلينَ﴾[١] قرأه ابن كثير بالتوحيد: «آيةٌ لِلسّائِلينَ» جعل شأن يوسف عليه السلام كلّه آية واحدة على الجملة و إنْ كان في التفصيل آيات كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً﴾[٢] فوحّد و إن كان شأنهما التفصيل. و قرأ الباقون بالجمع، لاختلاف أحوال يوسف، و لانتقاله من حال إلى حال ففي كلّ حالة جرت عليه آيةٌ، فجمع لذلك. قال أبو محمّد: «و هو الاختيار لأنّ الجماعة عليه».[٣]

و منها قوله: ﴿المُخْلَصِيْنَ﴾.[٤] قرأ نافع و أهل الكوفة بفتح اللّام مبنيّاً للمفعول، لأنّ الله أخلصهم أي اختارهم لعبادته، و قرأ الباقون بكسر اللام مبنيّاً للفاعل، لأنّهم أخلصوا أنفسهم للعبادة. قال أبو محمّد: «و فتح اللام أحبّ إليّ، لأنّهم لم يخلصوا أنفسهم لعبادة الله إلّا من بعد أن اختارهم الله لذلك و أخلصهم».[٥]

٤ ـ تناقض في القراءات: في القراءات المضبوطة عن أئمّة

---

١ ـ يوسف: ٧.

٢ ـ المؤمنون: ٥٠.

٣ ـ الكشف عن وجوه القراءات السبع: ٢/ ٥.

٤ ـ يوسف: ٢٤.

٥ ـ الكشف عن وجوه القراءات السبع: ٢/ ٩ ـ ١٠.

القرّاء ـ السبعة و غيرهم ـ كثير من مناقضات لا تجتمع على معنى واحد. الأمر الّذي يتنافى مع نصّ الوحي الذي لايحتمل اختلافاً أصلاً، ﴿وَلو كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.[١] هذا هو المقياس لمعرفة وحي السماء و من ثمّ لايصحّ إسناد هذا الاختلاف إلى النّبي ﷺ.

من ذلك: اختلافهم في قراءة: ﴿أو لَامَسْتُم النساءَ﴾[٢]. قرأ حمزة والكسائي: «أولَـمَسْتُمْ» والباقون «أو لامستم». و قد بنى الفقهاء نقض وضوء اللامس و عدمه على هذا الاختلاف.

و كذلك اختلافهم في جواز وطء الحائض عند انقطاع الدم و عدمه قبل الاغتسال ينظر إلى اختلاف القراءة في: ﴿حَتّىٰ يَطْهُرْنَ﴾.[٣] قرأ حمزة والكسائي بالتشديد، والباقون بالتخفيف.

٥ ـ عدم الملازمة بين تواتر القرآن و تواتر القراءات: قال القاضي أبو سعيد فرج بن لبّ الأندلسي: «من زعم أنّ القراءات السبع لايلزم فيها التواتر فقوله كفر، لأنّه يؤدّي إلى عدم تواتر القرآن».[٤] و لم يوافقه عليه أحد من المحقّقين، نظراً إلى عدم تلازم بين الأمرين.

قال سيّدنا الأُستاذ الإمام الخوئي ﷺ: «إنّ تواتر القرآن لايستلزم تواتر القراءات، لأنّ الاختلاف في كيفيّة تعبير الكلمة لاينافي الاتّفاق في أصلها،

---

١ ـ النساء: ٨٢.

٢ ـ النساء: ٤٣.

٣ ـ البقرة: ٢٢٢.

٤ ـ مناهل العرفان: ١/ ٤٣٥.

كما أنّ الاختلاف في خصوصيّات حدث تاريخي ـ كالهجرة مثلاً ـ لاينافي تواتر نفس الحدث، على أنّ الواصل إلينا بتوسّط القرّاء إنّما هو خصوصيّات قراءاتهم، و أمّا أصل القرآن فهو واصل إلينا بالتواتر بين المسلمين، و بنقل الخلف عن السلف، و تحفّظهم عليه في الصدور و في الكتابات، و لا دخل للقرّاء ـ بخصوصهم ـ في ذلك أصلاً. و لذلك فإنّ القرآن ثابت التواتر حتّى لو فرضنا أنّ هؤلاء القرّاء السبعه أو العشرة لم يكونوا في عالم الوجود أصلاً. إنّ عظمة القرآن و رفعة مقامه أعلى من أن تتوقف على نقل أُولئك النفر المحصورين». [1]

لا شكّ أنّ القرآن ـ و هو نصّ الوحي الإلهي الحكيم ـ متواتر بين المسلمين تواتراً قطعياً في جميع سوره و آياته و كلماته، بحيث لو أبدلنا كلمة من القرآن أو نقلناها من مكانها إلى مكان آخر لاستنكرها المسلمون و وجدوها شيئاً غريباً عن أُسلوب كلام الله العزيز الحميد. و من ثمّ فإنّ القراءات الّتي كانت لاتوافق نصّ المصحف، كانت مستنكرة لدى المسلمين، العامّة والعلماء، و عدّوها شاذّة منبوذة، كما تقدّم في الفصل السابق. و ستأتي ـ في فصل اختيار القراءة الصحيحة ـ شروط التعرّف إلى القرآن المتواتر، المتسالم لدى عامّة المسلمين.

سؤال: إنّ القراءات إذا لم تكن متواترة جميعاً فإنّ القرآن يصبح في بعض آيه ـ و هو الذي اختلفت القراءة فيه ـ غير متواتر، كما في «مالك» و

---

١ ـ البيان: ١٧٣.

قد قرىء بالوجهين، فأيّهما النص؟ و قد استدلّ ابن الحاجب ـ في مختصر أُصوله ـ بذلك لإثبات تواتر القراءات السبعة.[١]

جواب: إنّ النصّ الأصلي هو ما ثبت في المصحف الكريم، والذي أجمعت الأُمّة عليه نصّاً واحداً. و إنّما جاء الاختلاف في كيفية قراءته و في أُسلوب تعبيره، الأمر الّذي لايتنافى مع ثبوت تواتر الأصل، كما في كثير من أشعار الشعراء القُدامىٰ، حيث إنّ أصل البيت أو القصيدة ثابتة له بالتواتر و إن كان الرواة مختلفين في بعض الكلمات أو الحركات. مضافاً إلى أنّ اختلاف القراءة ـ كما تقدّم ـ كان عن اجتهاد منهم في تحقيق الكلمة تعبيراً، في حين وحدة النصّ الثابت في المصحف، و ذلك لأنّ اختلافهم جاء من قبل خلوّ المصحف الأوّل عن أيّ علامة مائزة و عن الأشكال والنقط، بل و عن الألفات، و ربّما زيادات خارجة عن أُسلوب الخطّ الصحيح، لمكان جهل العرب الأوائل بأُصول الكتابة المتقنة. فلا يضرّ اختلاف القراءة بوحدة النّص الأصل، الثابت في المصحف الأوّل، ممّا تسالمت عليه الأُمّة عبر التاريخ. و قد أخرج ابن أشته في كتاب «المصاحف»، و ابن أبي شيبة في «فضائل القرآن»، من طريق ابن سيرين عن عبيدة السلماني، قال: «القراءة الّتي عرضت على النّبيﷺ في العام الّذي قبض فيه، هي القراءة الّتي يقرؤها الناس اليوم».[٢]

و إلى ذلك ـ أيضاً ـ أشار الحديث عن الإمام الصادقؑ قال: «القرآن

---

١ ـ نقلاً عن البيان: ١٧٤.

٢ ـ الإتقان: ١/ ٥٠.

واحد نزل من عند واحد و لكن الاختلاف يجيء من قبل الرواة».[١]

سؤال: إذا اختلفت القراءة في نصّ واحد فمن أين يعرف النصّ الأصل بعد احتمال الخطأ لكلتا القرائتين؟

جواب: سنشرح ـ في فصل قادم ـ شروط اختيار القراءة الصحيحة الموافقة للنصّ الأصل، و هي القراءة المشهورة المعروفة بين الناس الّتي تلقّتها الأُمّة بالقبول في جميع أدوارها. و من ثمّ فإنّ القراءات التي كانت تخرج عن محدودة العرف العامّ كانت تقع بموضع إنكارهم.

سؤال آخر: هل لايقدح اختلاف مصاحف الأمصار الأوّليّة ـ على ما شرحنا ـ في تواتر النصّ الأصل الواحد؟

جواب: كلّا، فإنّ الثبت الأصل ـ أيضاً ـ من بين تلك المصاحف، هو ما اجمعت عليه الأُمّة و وقع موضع اتّفاقهم، و شاع و ذاع طول التاريخ و كان ثبت غيره في سائر المصاحف مهجوراً، و من ثمّ فهو شاذّ منبوذ. مثلاً: اختلف مصحف الشام مع مصحف الكوفة، فكان ثبت الشام: «و أوصىٰ بها إبراهيم» و كان ثبت الكوفة: ﴿وَ وَصّىٰ بِها إبْراهِيْمُ﴾[٢] لكن الأُمّة اعترفت بالثاني و نبذت الأوّل. و هو دليل قاطع على أنّ الصحيح هو ذاك دون الآخر. و من ثمّ لاتجوز القراءة وفق المأثور عن مصحف الشام في خصوص هذه الآية.

٦ ـ لا صلة بين حديث الأحرف السبعة والقراءات السبعة: لم نجد من

---

١ ـ الكافي: ٢/ ٦٣١.

٢ ـ البقرة: ١٣٢.

علماء الفنّ من يرى أيّ صلة بين حديث «أُنزل القرآن على سبعة أحرف» و«القراءات السبعة» المعروفة. نعم، تداول على ألسنة العوام، من غير مستند معروف، و قد ردّ على هذه الزعومة الشائعة كثير من الأئمّة النقّاد، كابن الجزري و أبي شامة والزركشي و أبي محمّد مكّي و ابن تيميّة و أضرابهم.

قال ابن تيميّة: «لانزاع بين العلماء المعتبرين أنّ الأحرف السبعة الّتي ذكر النّبي ﷺ أنّ القران أُنزل عليها، ليست قراءات القرّاء السبعة المشهورة، بل أوّل من جمع ذلك ابن مجاهد، ليكون ذلك موافقاً لعدد الأحرف التي أُنزل عليها القرآن لا لاعتقاده و اعتقاد غيره من العلماء: أنّ القراءات السبعة هي الحروف السبعة، أو أنّ هولاء السبعة المعيّنين هم الذين لايجوز أن يقرأ بغير قراءتهم».[1]

ويزيد هذا الوهم شناعة: أنّه يستدعي أن تبقى الأحرف السبعة ـ التي أجاز النّبي ﷺ قراءتها في المفروض ـ مجهولة حتّى يجيء من القرّاء هولاء السبعة بالخصوص في عصور متأخّرة تدريجياً ثمّ تبقى الأحرف السبعة التي أجازها النّبي ﷺ لجميع الأُمّة في احتكار سبعة من القرّاء فقط. في حين وجود قرّاء، هم أكبر من هؤلاء السبعة قدراً و أعظم شأناً فلم تسعهم الأحرف السبعة، و كأنّ النّبي ﷺ أوصىٰ إلى ابن مجاهد الذي جاء في مطلع القرن الرابع، ليخصّص هؤلاء فقط بتلك الأحرف و يحرم الآخرين، سواء السابقين واللاحقين.

---

١ ـ راجع: النشر: ١/ ٣٩.

الأسئلة

١. ما معنى التواتر في الاصطلاح؟ و ما المراد من تواتر القراءات؟
٢. أُذكر شروط تواتر الحديث.
٣. أُذكر الأدلّة على عدم تواتر القراءات.
٤. ما هو رأي الإمام الخوئيﷺ في تواتر القراءات؟
٥. ما هو أقوى دليل على عدم اعتراف علماء السلف بتواتر القراءات؟
٦. هل في القراءات السبعة قراءة شاذّة؟
٧. أُذكر كلام الإمام الخوئيﷺ في عدم الملازمة بين تواتر القرآن و تواتر القراءات.
٨. هل القول بعدم تواتر القراءات يستلزم عدم تواتر القرآن في بعض آياته؟ بَيِّنْ ذلك.
٩. هل اختلاف مصاحف الأمصار الأوّليّة يقدح في تواتر النصّ الأصل الواحد؟
١٠. هل هناك علاقة بين حديث الأحرف السبعة و قراءة القراء السبعة؟

حديث الأحرف السبعة

أحاديث «نزول القرآن على سبعة أحرف» على أربع طوائف:

الطائفة الأُولىٰ: الأحاديث الناظرة إلى اللهجات العربيّة: منها: ما روى أبو جعفر الصدوق، بسند ـ فيه أحمد بن هلال و هو غال متّهم في دينه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «أتاني آتٍ من الله فقال: إنّ الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد». فقلت: «ياربّ! وسّع على أُمّتي»، فقال: «إنّ الله يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف».[1]

ومنها: ما روى البخاري و مسلم عن النبي ﷺ قال: «أقرأني جبرئيل عليه السلام على حرف واحد، فراجعته فلم أزل أستزيده و يزيدني حتّى انتهى إلى سبعة أحرف».[2] والأحرف في هٰذين الحديثين هي اللهجات العربيّة. و يؤيّد هذا المعنى ماروي عن أُبي بن كعب قال: «إنّ النبي ﷺ لقي

---

١ ـ الخصال: ٢/ ٣٥٨، أبواب السبعة، ح ٤٣.

٢ ـ صحيح البخاري: ٦/ ٢٢٧. و صحيح مسلم: ٢/ ٢٠٢.

جبرئيل فقال له: إنّي بعثت إلى أُمّة أُمّيّين، منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قطّ. قال: يا محمّد: إنّ القرآن أُنزل على سبعة أحْرف».[١]

الطائفة الثانية: الأحاديث الناظرة إلى جواز تبديل الكلمة إلى مرادفتها: منها: ما روي عن أُبي بن كعب، قال: قال رسول‌الله ﷺ: «يا أُبي إنّي أُقرئت القرآن على حرف و حرفين و ثلاث حتّى بلغت سبعة أحرف. ثمّ قال: ليس منها إلّا شافٍ كافٍ، إن قلت سميعاً عليماً: عزيزاً حكيماً، ما لم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب».[٢]

الطائفة الثالثة: الأحاديث الناظرة إلى البطون: منها: ما روى أبو جعفر الصدوق، بسند ـ فيه محمّد بن يحيىٰ الصيرفي و هو مجهول ـ عن حمّاد بن عثمان عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «إنّ القرآن نزل على سبعة أحرف، و أدنى ما للإمام أن يفتي على سبعة وجوه».[٣] فسّر العلماء الأحرف في هذا الحديث بمعنى بطون، أي: كلّ آية تحتمل وجوهاً من المعنى، و إن كانت ربّما تخفى على العامّة، لكن الإمام المعصوم عليه السلام يعرفها، فيفتي عليها.

و من طريق العامّة روي عن عبدالله بن مسعود، قال: قال رسول‌الله ﷺ: «أُنزل القرآن على سبعة أحرف، لكلّ منها ظهر و بطن، و

---

١ ـ الترمذي: ٥/ ١٩٤، ح ٢٩٤٤.

٢ ـ سنن أبي داود: ٢/ ١٠٢.

٣ ـ الخصال: ٢/ ٣٥٨، أبواب السبعة، ح ٤٣.

لكلّ حرف حدّ، و لكلّ حدّ مطلع».[١]

الطائفة الرابعة: الأحاديث الناظرة إلى تنوّع الآيات إلى أبواب سبعة:

منها: ما روى أبو عبدالله محمد بن إبراهيم النعماني ـ مرسلاً ـ عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قال: «أُنزل القرآن على سبعة أقسام، كلّ منها شافٍ كافٍ، و هي: أمر و زجر و ترغيب و ترهيب و جدل و مثل و قصص».[٢] هذا الحديث تفسير للأحرف السبعة بفنون من الكلام اشتمل عليها القرآن الكريم كما جاء التصريح به أيضاً في حديث أبي قلابة، قال: بلغني أنّ رسول‌الله صلى الله عليه وآله قال: «أُنزل القرآن على سبعة أحرف: أمر و زجر و ترغيب و ترهيب و جدل و قصص و مثل».[٣]

والكثرة مع الطائفة الأُولىٰ، و إليها انصرف نظر العلماء، بشأن الأحرف السبعة التي أجاز النّبي صلى الله عليه وآله قراءة القرآن بها، أمّا الطوائف الأُخر فشاذّة أو باطلة رفضها أئمّة التحقيق. و نحن نتكلّم الآن في كلّ طائفة إجمالاً:

أمّا الطائفة الأُولىٰ ـ و تعني اختلاف اللهجات ـ فتوسعة على الأُمّة في قراءة القرآن، فإنّ البدويّ لايستطيع النطق كالحضري، و لا الأُمّي يتمكنّ في تعبيره كالمثقّف الفاضل، و لا الصغير كالكبير، و لا الشيخ كالشابّ،

---

١ ـ تفسير الطبري: ١/ ٩.

٢ ـ رسالة النعماني في صنوف آي القرآن، و نسبت ـ أيضاً ـ إلى سعد بن عبدالله الأشعري والشريف المرتضىٰ. راجع: بحار الأنوار: ٩٣/ ٤ و ٩٧.

٣ ـ تفسير الطبري: ١/ ٢٣.

فضلاً عن اختلاف لهجات القبائل في تعبير كلمة واحدة، بما تعجز كلّ قبيلة عن النطق بغير ما تعودّت عليه في حياتها. و هكذا اختلاف أُمم غير عربيّة في القدرة على النطق بالألفاظ العربيّة، فلو كانت الأُمّة الإسلاميّة ـ على مختلف شعوبها ـ مكلّفة بالنطق على حدّ سواء، لكان ذلك من التكليف بغير المستطاع، و ﴿لايُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلّا وُسْعَها﴾.[١] فرخّص النّبي ﷺ لأُمّته أن يقرأوا القرآن على سبعة أحرف، على اختلاف لهجاتهم، لايكلّفون لهجة خاصّة هم عاجزون عنها. و قد روى الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول‌الله ﷺ قال: «إنّ الرجل الأعجمي من أُمّتي ليقرأ القرآن بعجميّته، فترفعه الملائكة على عربيّته».[٢] فالهذلي يقرأ: «عَتّىٰ حِيْنٍ» يريد ﴿حَتّىٰ حِيْنٍ﴾،[٣] لأنّه هكذا يلفظ بها و يستعملها. والأسدي يقرأ: تِعلمون و تِعلم ـ بكسر تاء المضارعة ـ و ﴿تَسْوَدُّ وجوهٌ﴾[٤] ـ بكسر التاء ـ و ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾[٥] بكسر الهمز في أعهد. و لو أنّ كلّ فريق من هؤلاء، أُمر أن يزول عن لغته و ما جرىٰ عليه اعتياده، طفلاً و ناشئاً و كهلاً، لاشتدّ ذلك عليه و عظمت المحنة فيه و لم يمكنه إلّا بعد رياضة للنفس طويلة و تذليل للّسان و قطع للعادة. فأراد‌الله رحمته و لطفه أن يجعل لهم

---

١ ـ البقرة: ٢٨٦.

٢ ـ وسائل الشيعة: ٤/ ٨٦٦.

٣ ـ المؤمنون: ٥٤.

٤ ـ آل عمران: ١٠٦.

٥ ـ يس: ٦٠.

متّسعاً في اللغات و متصرّفاً في الحركات كتيسيره عليهم في الدين.[١]

و في رواية عن ابن عباس: أنّ النّبيﷺ كان يقرئ الناس بلغة واحدة، فاشتّد ذلك عليهم، فنزل جبرئيل، فقال يامحمّد: أقرء كلّ قومٍ بلغتهم.

و هذا ما نختاره في تفسير الأحرف السبعة، باختلاف لغات العرب ـأي لهجاتهمـ في التعبير والأداء.

والحرف ـفي اللغةـ: الطرف والناحية، قال ابن سيدة: «فلان على حرف من أمره، أي ناحية منه». فالكلمة إذا كانت تعبّر بوجوه فكلّ وجه لها حرف، لأنّ وجه الشيء طرفه و جانبه الذي يبدو منه. و بما أنّ القراءة ـو هي كيفيّة في تعبير الكلمةـ وجه من وجوه تعبير اللفظ، فهي حرف، والجمع أحرف.

أمّا الطائفة الثانية فتعني جواز تبديل الكلمة إلى مرادفتها، على شريطة التحفّظ على صلب المراد، و لاتتبدّل آية رحمة بعذاب أو آية عذاب برحمة. و قد عرف ابن مسعود و أُبي بن كعب بذهابهما إلى جواز هذا التبديل. قال ابن مسعود: «لقد سمعت القرّاء و وجدتهم متقاربين، فاقرأوا كما علّمتم، فهو كقولكم هلمّ و تعال».[٢] و كان يعلّم رجلاً أعجميّاً القرآن، فقال: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ فكان الرجل يقول: طعام اليتيم، و لم يستطع أن

---

١ ـ تأويل مشكل القرآن: ٣٩ ـ ٤٠.

٢ ـ معجم الأدباء: ٤/ ١٩٣، رقم ٣٣.

يقول: الأثيم. فقال له ابن مسعود: «قل: طعام الفاجر». ثمّ قال: «إنّه ليس من الخطأ في القرآن أن يقرأ مكان «العليم»: «الحكيم»، بل أن يوضع آية الرحمة مكان آية العذاب».[١] و قرأ: «كالصُّوفِ الْمَنفُوشِ» بدل ﴿كَالعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾.[٢] و تبعهما في ذلك أنس و أبو هريره أيضاً.

لٰكنّه مذهب فاسد في رأي المحقّقين، و من ثمّ رفضه جمهور المسلمين طول التاريخ، إذ لكلّ كلمة خاصّة موقعيّة لاتناسبها كلمة أُخرىٰ، حتّى لو كانت مرادفة لها، فضلاً عن غير المرادفة. إذ موضع استعمال «العليم الحكيم» ـ مثلاً ـ يختلف عن موضع استعمال «الغفور الرحيم».

قال سيّدنا الأُستاذ الإمام الخوئيﷺ: «هذا الاحتمال يوجب هدم أساس القرآن، المعجزة الأبديّة والحجّة على جميع البشر، و لايشكّ عاقل في أنّ ذلك يقتضي هجر القرآن المنزل، و عدم الاعتناء بشأنه، و هل يتوهّم عاقل ترخيص النبيّ ﷺ أن يقرأ القاري: «يس * والذكرِ العظيمِ * إنّك لَمِنَ الأنبياءِ * على طريق سوى * إنزالَ الحميدِ الكريمِ * لِتُخَوِّفَ قوماً ما خُوِّفَ أسلافُهم فَهُمْ ساهُون»...! فلتقرّ عيون المجوّزين لذٰلك! سبحانك هذا بهتان عظيم. و روي أنّ رسول‌الله ﷺ علّم براء بن عازب دعاء كان فيه: «و نبيّك الّذي أرسلت» فقرأ براء: «و رسولك الذي أرسلت» فأمره ﷺ أن لايضع الرسول موضع النبي، فإذا كان هذا شأن الدعاء فما بالك

---

١ ـ تفسير الرازي: ٢/ ٢١٣.

٢ ـ تأويل مشكل القرآن: ١٩.

بالقرآن، و هو كلام الله المنزل الخالد».[١]

أمّا الطائفة الثالثة والرابعة فلا بأس بهما ذاتياً لو صحّت أسانيدهما غير أنّ الأصحّ ـ حسب الظاهر ـ هي الطائفة الأُولىٰ، الّتي عنت من الأحرف اختلاف لهجات العرب في التعبير والأداء.

والمقصود من السبعة، هي الكثرة النسبيّة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿والبَحرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةَ أبْحُرٍ﴾[٢] و كالسبعين في قوله تعالىٰ: ﴿إنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِيْنَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾.[٣]

ملحوظة: اختلاف اللهجة في تعبير الكلمه جائز إذا لم يصل إلى حدّ اللحن في المقياس العامّ، أمّا القراءة الملحونة فلا تجوز للمتمكّن عن النطق السليم ـ و لو بالتعلّم ـ. و أمّا العاجز فيكفيه ما يحسنه، ﴿و لايُكلّف اللهُ نفساً إلّا وُسْعَها﴾. و في حديث الإمام الصادق عليه السلام يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الرجل الأعجميّ من أُمّتي ليقرأ القرآن بعجميّته، فترفعه الملائكة على عربيّته».[٤] و قد تقدّم.

---

١ ـ البيان: ١٩٧ ـ ١٩٨.

٢ ـ لقمان: ٢٣.

٣ ـ التوبة: ٨٠.

٤ ـ وسائل الشيعة: ٤/ ٨٦٦.

الأسئلة

١. كم طائفة أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف؟ أُذكرها اجمالاً.
٢. ما المختار في تفسير الأحرف السبعة؟
٣. ماذا تعنى الطائفة الأُولى من أحاديث سبعة أحرف؟
٤. ماذا تعنى الطائفة الثانية من أحاديث سبعة أحرف؟
٥. من الذي يجوّز تبديل كلمات القرآن إلى مرادفتها؟ و لِمَ لانجوّز ذلك؟
٦. ما هو رأي الإمام الخوئيﷺ في ردّ القول بجواز تبديل كلمات القرآن؟
٧. ماذا تعنى الطائفة الثالثة والرابعة من أحاديث سبعة أحرف؟
٨. ما هو الملاك في قبول اختلاف اللهجة؟

ضابط قبول القراءة

ذكر أئمّة الفنّ لقبول القراءة شروطاً ثلاثة: صحّة السند و موافقة الرسم و استقامة وجهها في العربية.

و إذا فقد أحد هذه الشروط تصبح القراءة شاذّة، لاتصحّ القراءة بها، لا في صلاة و لا في غيرها و تسقط عن اعتبارها قرآناً رأساً، سواء كانت من السبعة أم من غيرهم.

و نحن إذ كنّا نعتبر القرآن ذا حقيقة ثابتة، مستقلاً بذاته، متغايراً عن القراءات جملة، فإنّ مسألة «اختيار القراءة الصحيحة» عندنا منحلّة. والقراءة الصحيحة هي التي تتوافق مع النصّ المتواتر بين المسلمين، منذ الصدر الأوّل إلى الآن. و لم يكن اختلاف القراءات سوى الاختلاف في كيفيّة التعبير عن هذا النّص المحفوظ كاملاً على يد الأُمّة عبر الأجيال. و هكذا تعاهد المسلمون نصّ القرآن أُمّة عن أُمّة، نقلاً متواتراً في جميع خصوصيّاته الموجودة، نظماً و ترتيباً، و رسماً و قراءة، بكلّ أمانة و إخلاص عبر العصور، معجزة قرآنية خالدة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا

لَهُ لَحافِظُونَ﴾،[١] أي: على يد هذه الأُمّة مع الأبدية.

و توضيح ذٰلك يتوقّف على تمهيد مقدّمة نستوضح فيها مسألة «تواتر النصّ القرآني» ثمّ التعرّج إلى مسالة «اختيار القراءة الصحيحة» نظراً للعلاقة القريبة بين المسألتين في هذا البحث، و إليك بإيجاز:

تواتر القرآن:

ممّا يبعث على اعتزاز هذه الأُمّة، هو تحفّظهم على كتاب الله نصّاً واحداً ـ كما أُنزل على النبي ﷺ ـ طول التاريخ. المسلمون ـ على اختلاف آرائهم و مذاهبهم ـ اتّفقوا، منذ الصدر الأوّل ـ عهد الصحابة الأوّلين ـ إلى العصر الحاضر ـ و سيبقى مع الدهر ـ على نصّ القرآن الأصيل، في جميع حروفه و كلماته و نظمه و ترتيبه و قراءته. تلقّوه من الرسول الأعظم ﷺ و توارثوه يداً بيدٍ. و ما نقرؤه اليوم هو الذي كان يقرؤه المسلمون في العهد الأوّل. حدّث محمّد بن سيرين (م ١١٠)عن عبيدة السلماني (م ٧٣) قال: «القراءة الّتي عرضت على النبي ﷺ في العام الذي قبض فيه، هي القراءة التي يقرؤها الناس اليوم».[٢] و من راجع الروايات يشهد بوضوح أنّها تجعل المعيار لمعرفة القراءة الصحيحة «قراءة الناس»، و تجعل غيرها شاذّة لاتجوز قراءته بتاتاً أو يضرب عنق قارئها ـ كما هو التعبير في بعضها ـ و

---

١ ـ الحجر: ٩.

٢ ـ الإتقان: ١/ ٥٠.

ليس سوىٰ أنّه خارج عن قراءة الناس.[١]

و يدّل ـأيضاًـ على تواتر النصّ الموجود ـمن غير أن يـؤثّر عـليه شيء من اختلاف القراءات ـ تلك المخالفات في رسم الخطّ و ربّما كتبت وفق قراءة العامّة و تثبت رغم تقلّبات الدّهور و مرّ العـصور. مـن ذلك قـوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾،[٢] الهاء زائدة للوقف. كتبت و قرئت هكذا منذ العهد الأوّل و ثبتت مرّ الدّهور، قال عبدالله بن هاني البريزي ـمـولىٰ عـثمان. «كنت عند عثمان و هم يعرضون المصاحف، فأرسلني بكتف شاة إلى أُبي بن كعب فيها: «لَمْ يَتَسَنَّ». و فيها: «لاتَبْدِيْلَ لِـلْخَلْقِ الله». و فـيها «فأمْـهِلِ الكافرينَ». فدعا بدواة فمحى اللامين و كتب «لِخَلْقِ الله». و محى «فأمْهِلْ» و كتب «فـمَـهِّلْ». و كتب «لَمْ يَتَسَنَّه» فألحق فيها الهاء».[٣] و لولا أنّـه السماع من رسول‌الله ﷺ لم يكتبها أُبي بالهاء، كما أنّ اختلاف القرّاء فيما بعد و تطّور الكتابة والخطّ كليهما لم يؤثر على تغيير الكلمة عمّا كتبها الأوائـل و قرأها السلف و من ورائهم عامّة المسلمين عبر الأجيال.

و أيضاً فإنّ قضية تشكيل المصحف على يد أبي الأسود، و تنقيطه على يد تلميذيه نصر بن عاصم و يحيىٰ بن يعمر دليل عـلى أنّ القـران كـان ذاحقيقة ثابتة في صدور المسلمين فجاء تقييدها في المصحف على يد زعماء

---

١ ـ راجع: المرشد الوجيز: ١٨٠ ـ ١٨١ و مناهل العرفان: ١/ ٤٥٢.

٢ ـ البقرة: ٢٥٩.

٣ ـ الإتقان: ١/ ١٨٣.

الأُمّة خشية تحريف من لا عهد له بالقرآن. والمصاحف المرسومة وفق المصطلح الأوّل باقية لاتختلف في إعرابها و حركاتها و مرسوم كلماتها عمّا بأيدينا من المصاحف الحاضرة.

و يدلّ ـأيضاًـ وجود قطع قرآنيّة جاءت في كلمات السلف، لغرض الاستشهاد أو التفسير أو نحو ذلك، لاتختلف عن النصّ الموجود.

كما أنّ مخالفات جرت على ألسن بعض السلف، وقعت موضع إنكار العامّة و عرفت منذ العهد الأوّل أنّها غير نصّ الوحي، كقراءة أبي‌بكر لما احتضر: «وجاءت سكرةُ الحَقِّ بالموتِ».[1] و أرباب التاريخ ـ المفسرون والمحدّثون ـ رموا ـ منذ ذلك العهد ـ هذه القراءة بالشذوذ المخالف للرسم.[2] فلولا أنّ للقرآن حقيقة ثابتة معهودة عند الجميع لما كان لهذا الغوغاء سبب واضح.

و عليه فالمعيار لتعيين القراءة هي: موافقتها مع النصّ الأصل المحفوظ لدى عامّة المسلمين بشروط نعرضها في الفصل التالي.

ملاك صحّة القراءة:

موافقة القراءة مع النصّ الأصل تتحقّق إذا توفّرت فيها الشروط التالية:

أوّلاً: موافقتها مع الثبت المعروف بين عامّة المسلمين، في مادة الكلمة

١ـ راجع: تفسير القرطبي: ١٧/ ١٢ـ ١٣. في أشهر الروايتين.

٢ـ راجع أيضاً: البرهان: ١/ ٣٣٥.

و صورتها و موضعها من النظم القائم، حسب تعاهد المسلمين خلفاً عن سلف. ففي مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾[١] من التبيّن و «فَتَثَبَّتُوا» من التثبّت[٢]، لا شكّ أنّ الصحيح هو إحدى القرائتين والأُخرىٰ باطلة لأنّ المصحف أوّل ما شكّل و نقّط كان تشكيله و تنقيطه على أحد الأمرين و هو الذي كان معروفاً و متعاهداً بين عامّة المسلمين، و لم يكن أبو الأسود و لا تلميذاه متردّدين في وضع العلائم المذكورة، و ثبت الكلمات والحروف وفق مرتكزهم العامّ، كما تلقّوها يداً بيد من غير ترديد أصلاً. و إنّما الاختلاف جاء من قبل اجتهاد القرّاء المتأخّرين، شيئاً خارجاً عن النصّ الأصل المعروف عند عامّة الناس. و من ثمّ فلمّا سأل فضيل بن يسار، الإمام الصادق عليه السلام عن حديث «نزل القرآن على سبعة أحرف» قال: «كذبوا ـ أعداء الله ـ و لكنّه نزل على حرف واحد من عند الواحد». ثمّ لتعيين هذا الحرف الواحد جعل الإمام عليه السلام المقياس معهود عامّة المسلمين، قال: «اِقْرَأ كما يَقْرأُ الناسُ». و في رواية أُخرىٰ: «اِقْرَأُوا كَما عُلِّمْتُمْ».[٣] فجعل المقياس «كما يَقْرَأُ الناسُ» أي: عامّة المسلمين، و لم يعتبر من قراءة القراء شيئاً، والرواية الأُخرىٰ أصرح، «كما عُلِّمْتُمْ» أي: تعاهدتموه جيلاً عن جيل وأُمّة عن أُمّة لا قراءة أفراد هم آحاد. فالصحيح من القرائتين هي «فَتَبَيَّنوا» لأنّ ثبت المصحف قديماً و حديثاً والذي تعاهدته الأُمّة هو بالباء والقراءة

---

١ ـ الحجرات: ٦.

٢ ـ قرأ حمزة والكسائي بالثاء و قرأ الباقون بالباء. الكشف عن وجوه القراءات السبع: ١/ ٣٩٤.

٣ ـ راجع: وسائل الشيعة: ٤/ ٨٢١ ـ ٨٢٢.

الأُخرىٰ ساقطة عندنا و غير جائزة إطلاقاً.

و في مثل قوله تعالىٰ: ﴿حتّى يَطْهُرنَ﴾[١] ـ ثلاثياً بمعنىٰ انقطاع الدم، أو «يَطَّهَّرْنَ» مزيداً فيه من باب التفعّل على معنى التطّهر بالماء[٢] ـ نرجّح التخفيف، لأنّ شرط جواز إتيانهنّ بلا كراهة أمران: انقطاع الدم والاغتسال. و أمّا على قراءة التشديد فيبقىٰ أمر انقطاع الدّم مسكوتاً عنه.

و في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَ جاءَتْ سَكْرَةُ الموتِ بِالْحَقّ﴾،[٣] الذي قرأه أبوبكر: «وجاءت سكرةُ الحقِّ بالموتِ». نرجّح الأُولىٰ لأنّها مشهورة والأُخرىٰ باطلة، لمخالفتها الرسم والمتعاهد بين عامّة المسلمين جميعاً.

ثانياً: موافقتها مع الأفصح في اللّغة والأفشىٰ في العربية و يعرف ذٰلك بالمقارنة مع القواعد الثابتة يقيناً من لغة العرب الفصحى. والدليل على ذلك هو أنّ القرآن نزل على أعلى درجة من البلاغة، و يستحيل أن يستعمل كلمة يمجّها الذوق العربي السليم، أو يخالف قاساً تسلّمته العرب الفصحى عادة طبيعيّة متعارفة. فقراءة الحسن «وماتَنَزّلَتْ به الشَّياطُونَ» غلط بلا ريب.[٤] توهّم أنّ الشيطانَ يجمع بالواو والنون.

---

١ ـ البقرة: ٢٢٢.

٢ ـ قرأ الحرميّان و أبو عمرو و ابن عامر و حفص مضموم الهاء مخفّفاً. و قرأ الباقون بفتح الهاء مشدّداً. الكشف عن وجوه القراءات السبع: ١/ ٢٩٤.

٣ ـ ق: ١٩.

٤ ـ راجع: البحر المحيط: ٧/ ٤٦، الكشّاف: ٣/ ١٢٩. والقراءات الشاذّة: ١٠٨. قال أبو حاتم: «هي غلط منه أو عليه». و قال النحاس: «هو غلط عند جميع النحويين».

ثالثاً: أنْ لايعارضها دليل قطعيّ، سواء كان برهاناً عقليّاً أم سنّة متواترة أم رواية صحيحة الإسناد مقبولة عند الأئمّة. فمثل «أرجلِكم» ـ بالخفض ـ و إنْ قرأ بها بعض كبار القرّاء لكنّها مرفوضة حيث كانت معارضة للدليل الأقوىٰ، كما رفضها جمهور المسلمين. و كانت علامة الثبت الأُولىٰ والّتي كان عليها ثبت المصاحف هي علامة النصب. أمّا الدليل الأقوىٰ الذي يرجّح النصب على الخفض، فهو اعتبار الاستيعاب ـ طولاً ـ في مسح الأرجل، نظراً لذكر الحدّ ـ بدءً و منتهىً ـ في الآية الكريمة (من رؤوس أصابع الأقدام إلى الكعبين).

و لتوضيح هذا الجانب ـ من المسألة الفقهيّة المستنبطة من الآية الكريمة ـ لابدّ من تمهيد مقدّمة هي: إنّ مادّة «مسح» يتعدّي بنفسه إلى المفعول به، و لايحتاج في تعديته إلى إضافة حرف في مدخوله لكن زيادة الباء في هذا الموضع من الآية كانت لنكتة، وهي أنّها لو لم تزد هنا لاستدعى إضافة «مسح» إلى متعلّقه، استيعابَ المسح لمحلّه استدعاءً بالطبع. كما في كلّ فعل أُطلق بالنسبة إلى متعلّقه. كما في «فاغسلوا وجوهَكم» استدعى استيعاب الغَسل لجميع صفحة الوجه طولاً و عرضاً. و من ثمّ لو لم يقيّد الغَسل في اليدين بقوله «إلى المرافق» لاستدعى استيعاب جميع اليد حتّى المنكب. و عليه فلو لم تزد الباء و قيل «وامسحوا رؤوسَكم» لاستدعى مسح الرأس كلّه نظير الوجه، حرفاً بحرفٍ. فزيدت الباء لتكون دليلاً على كفاية مجرّد المسح الملصق بالرأس، فلو وضع المتوضّي رأس إصبعه على رأسه و جرّها جرّاً خفيفاً، فقد صدق «لصوق المسح بالرأس».

والامتثال يقتضي الإجزاء ـ كما في الأُصول ـ و لا امتثال عقيب الامتثال. هذا في الرأس. أمّا في الرِّجل، فلّما جاء ذكر الحدّ للمسح، كان ذلك دليلاً على إرادة استيعاب ما بين الحدّين (رؤوس أصابع القدم، الكعبين) طولاً. و من ثمّ فإنّه معطوف على مدخول «وامسحوا» بلا زيادة الباء، أي محلّ المجرور و هو النصب. نعم ليس النصب عطفاً على مدخول «فاغسلوا» ـ كما زعمه القائل بوجوب غَسل الأرجل ـ استناداً إلى قراءة النصب في الآية، و هو فهم مخطأ و استنباط معوجّ، بعد ملاحظة أنّ العطف مع الفصل بالأجنبي مرفوض أو مرجوح في اللغة و لايحمل عليه القرآن الكريم.

القراءة المختارة:

أمّا القراءة التي نختارها ـ والتي تجمّعت فيها شرائط القبول أجمع ـ فهي قراءة عاصم برواية حفص بالخصوص، لأنّها القراءة التي كانت عليها جماهير المسلمين و تلقّوها يداً بيدٍ منذ الصدر الأوّل حتّىٰ توالي العصور. و ستأتي مزايا أُخرىٰ حوتها هذه القراءة بالذات دون غيرها من سائر القراءات.

لكن الشائع بين الفقهاء هو جواز القراءة بالسبع في الصلاة وغيرها، الأمر الذي يمكن توجيهه على مشارب فقهاء العامّة، إمّا لأجل تواترها عندهم ـ كما يراه البعض ـ أو لانطباق حديث الأحرف السبعة عليها، حسبما زعمه آخرون. لكن الأمر يشكل على مباني فقهائنا الإماميّة الّذين يرون القرآن واحداً نزل من عند واحد. إذن فما وجه تجويزهم القراءة بالسبع وغيرها؟

عمدة الاستدلال على جواز الأخذ بالقراءات المعروفة تتلخّص في:

١. سيرة المسلمين على الأخذ بها.

٢. إجماع الفقهاء على جواز ذلك.

٣. تظافر النصوص الواردة عن الأئمة عليهم السلام في الأمر بالعمل بما عند الناس والمعروف لدىٰ المسلمين.

و ناقش سيدنا الحكيم رحمه الله -في هذه الوجوه-: بأنّ المقطوع به من سيرة المسلمين منذ الصدر الأوّل هو الأخذ بأيّ قراءة صحّت لديهم و ليست من السبعة فحسب و لاسيّما تأخّر السبعة المعروفة عن العهد الأوّل. و أمّا الإجماع فمستنده الروايات و هي لاتعني خصوص هذه السبعة الّتي تأخّرت معروفيتها عن زمن الصادق والكاظم عليهما السلام و هما مصدرا تلك النصوص. نعم مقتضاها جواز العمل بكلّ قراءة كانت معروفة على عهدهم عليهم السلام لا غير فيشكل شمولها لبعض القراءات السبعة ممّا لم تكن متداولة ذلك العهد أو حدثت متأخّراً.[1]

والمناقشة متينة، سوى أنّ حمل النصوص على إرادة القراءات المتداولة لدىٰ القرّاء، والتي كانت مستنداتها -في الأغلب- تعاليل اجتهادية وترجيحات نظرية أو استحسانية، بعيدٌ. و حمل جماعة من الفقهاء النصوص على التقيّه.[2] فالواجب علينا النظر في النصوص التي هي عمدة الباب. وهي وردت بتعبيرين:

١ ـ الأمر بالقراءة على ما يقرؤه الناس.

---

١ ـ مستمك العروة: ٦/ ٢٤٣ ـ ٢٤٥.

٢ ـ راجع: تفسير الصافي: ١/ ٤١ (المقدمة رقم ٨). والحدائق الناظرة: ٨/ ٩٩ ـ ١٠٠.

٢ ـ الأمر بها كما تعلّموه.

و هذا لايعني سوى الأمر بالقراءة على ما تداوله جمهور المسلمين، لأنّهم المعنيّون بالناس لاخصوص القرّاء، إذ لا وجه لهذا الاختصاص. و لاسيما بعد ما عرفت أنّ القرآن شيء والقراءات شيء آخر، والأوّل سبيله مجرى التواتر والثاني هي الاجتهادات النظريّة. فلابدّ أنّ المراد من قراءة الناس هي القراءة المتواترة المحتفظة لدىٰ عامّة المسلمين، والتي توارثوها يداً بيد و جيلاً بعد جيل. و هذه القراءة التي تداولتها العامّة و توارثها المسلمون أُمّة بعد أُمّة هي التي قرأ بها عاصم بن أبي النجود برواية حفص ابن سليمان و قد توافقت عليها الأُمّة لميزات وجدوها في قراءته كما سيأتي.

الأسئلة

١. ما الضابط لقبول القراءة؟
٢. ما الدليل على تواتر النص القرآني الموجود؟
٣. ما الملاك في صحة القراءة؟
٤. ما هى القراءة المختارة؟ و ما الدليل على ذلك؟
٥. أُذكر الأدلّة على جواز القراءة بالسبعة في الصّلاة إجمالاً.
٦. لِمَ لاتدلّ السّيرة على جواز القراءة بالسبعة في الصّلاة؟
٧. لماذا نناقش في الإجماع على جواز القراءة بالسبعة في الصّلاة؟
٨. هل الروايات تدلّ على جواز القراءة بالسبعة في الصّلاة؟ بيّن ذلك.

القراءات السبعة

كان المسلمون في العهد الأوّل يقرأون القرآن كما يتلقّونه من صحابة الرسولﷺ و من بعدهم من التابعين ممّن حلّ في بلدهم من الأئمّة الكبار الّذين كانوا علماء الأُمّة في البلاد. ثمّ تجرّد قوم لفنّ القراءة والأخذ والتلقّي والإقراء سمة اختصاصيّة واعتنوا بذلك أتمّ عناية واشتهروا في قراءة القرآن و إقرائه حتّىٰ صاروا في ذلك أئمّة يقتدى بهم و يرحل إليهم و يؤخذ منهم. و أوّل إمام معتبر تصدّىٰ لضبط ما صحّ من القراءات و جمعها في كتاب بشكل مبسّط و بتفصيل هو أبو عبيد القاسم بن سلام الأنصاري (م ٢٢٤) تلميذ الكسائي.

حصر القراءات في السبعة:

في مطلع القرن الرابع كان أبوبكر بن مجاهد قد تصدّر كرسيّ شيخ القرّاء ـ رسمياً ـ من قبل الدولة ببغداد. كان ابن مجاهد حريصاً على الأخذ بتقليد السلف فيما قرأوا. لهذا جاهد جهده في سدّ باب الاختيار في القراءة

وانتهى إلى حصر القراءات في السبعة المشهورة و يعود أكثر لومه عليه. وعبارة «القراءات السبعة» لم تكن معروفة في الأمصار الإسلاميّة، حين بدأ العلماء يؤلّفون في القراءات، كأبي عبيد القاسم بن سلام و أبي جعفر الطبري و أبي حاتم السجستاني و غيرهم. فقد ذكروا في مؤلّفاتهم أضعاف تلك القراءات و إنّما اشتهرت هذه العبارة على رأس المأة الرابعة من لدن ابن مجاهد. و توهّم الكثير من عوام الناس أنّها هي المرادة من الأحرف السبعة التي جاءت في الحديث النبويّ.

القرّاء السبعة

١ ـ عبدالله «ابن عامر» اليحصبي، قارئ الشام (م ١١٨).[١]

٢ ـ عبدالله «ابن كثير» الداري، قارئ مكّة (م ١٢٠).[٢]

٣ ـ «عاصم» بن أبي النجود الأسديّ، قارئ الكوفة (م ١٢٨).[٣]

٤ ـ «ابو عمرو» بن العلاء المازني، و اسمه زبان، قارئ البصرة (م ١٥٤).[٤]

---

١ ـ راوياه هما: «هشام بن عمّار» (٢٤٥ ـ ١٥٣) و «ابن ذكوان» (٢٤٢ ـ ١٧٣). و لم يعرف السبب في اختيار ابن مجاهد هٰذين للرواية عن ابن عامر مع أنّهما لم يدركاه.

٢ ـ راوياه هما: «البزّي» (٢٥٠ ـ ١٧٠) و «قُنْبُل» (٢٩١ ـ ١٩٥) و لم يدركاه.

٣ ـ راوياه هما: «حفص» بن سليمان بن ربيعة (١٨٠ ـ ٩٠) و «شعبة» أبوبكر ابن عيّاش (١٩٣ ـ ٩٥). و كان حفص أضبط بقراءة عاصم.

٤ ـ راوياه هما: «الدوري» حفص بن عمر (م ٢٤٦) و «السوسي» صالح ابن زياد (م ٢٦١) و لم يدركاه، و إنّما رويا عن اليزيدي عنه.

٥ ـ «حمزة» بن حبيب الزيّات، قارئ الكوفة أيضاً (م ١٥٦).[١]

٦ ـ «نافع» بن عبد الرحمان الليثي، قارئ المدينة (م ١٦٩).[٢]

٧ ـ علي بن حمزة «الكسائي» قارئ الكوفة أيضاً (م ١٨٩).[٣]

و زاد المتأخّرون ثلاثة، تتميماً للعشرة، هم:

٨ ـ «خلف» بن هشام، راوي حمزة، و قارئ بغداد (م ٢٢٩).[٤]

٩ ـ «يعقوب» الحضرمي، ابن إسحاق، قارئ البصرة (م ٢٠٥).[٥]

١٠ ـ «أبو جعفر» يزيد بن القعقاع المخزوميّ. قارئ المدينه (م ١٣٠).[٦]

و ألحق بهؤلاء أربعة، قرأوا بالشواذّ، و قد اعتبرت قراءاتهم و قبلتها العامّة، و هم:

---

١ ـ راوياه هما: «خلف» بن هشام البزّاز (٢٢٩ ـ ١٥٠) و«خلاّد» ابن خالد الشيباني (م ٢٢٠) رويا عنه مع الواسطة.

٢ ـ راوياه هما: «قالون»، واسمه عيسى بن ميناء (٢٢٠ ـ ١٢٠) و «وَرْش» عثمان بن سعيد (١٩٧ ـ ١١٠).

٣ ـ راوياه هما: «الليث» بن خالد البغدادي (م ٢٤٠). و «الدوريّ» حفص بن عمر راوي أبي‌عمرو أيضاً (م ٢٤٦).

٤ ـ راوياه هما: «أبو يعقوب» المروزي إسحاق بن إبراهيم، (م ٢٨٦) و «أبوالحسن» إدريس بن عبد الكريم (م ٢٩٢).

٥ ـ راوياه هما: «رويس» محمد بن المتوكّل اللؤلؤيّ (م ٢٣٨) و «روح» بن عبد المؤمن الهذليّ (م ٢٣٥).

٦ ـ راوياه هما: «ابن وردان» عيسىٰ الحذّاء (م ١٦٠) و «ابن جمّاز» سليمان بن مسلم الزهريّ (م ١٧٠).

١١ ـ «الحسن البصري» بن يسار، قارئ البصرة (م ١١٠).[١]

١٢ ـ «ابن محيصن» محمد بن عبد الرحمان. قارئ مكّة مع ابن كثير (م ١٢٣).[٢]

١٣ ـ «اليزيديّ» يَحْيىٰ بن المبارك. قارئ البصرة (م ٢٠٢).[٣]

١٤ ـ «الأعمش» سليمان بن مهران الأسدي، قارئ الكوفة (م١٤٨).[٤]

ملحوظة: أربعة من القرّاء السبعة هم شيعة آل البيت عليهم السلام بالتصريح و من المحافظين الثقات: عاصم بن أبي النجود و أبو عمرو بن العلاء و حمزة بن حبيب و علي بن حمزة الكسائي.[٥] و واحد من أشياع معاوية و هو ابن عامر كان لايتورّع الكذب والفسوق.[٦] و اثنان ـ هما: ابن كثير المكّي و

---

١ ـ راوياه هما: «شجاع» بن أبي نصر البلخي (١٩٠ ـ ١٢٠). و «الدوريّ» حفص بن عمر (م ٢٤٦). رويا عنه بالإسناد.

٢ ـ راوياه هما: «البزّي» أحمد بن محمد (٢٥٠ ـ ١٧٠) و «ابن شنبوذ» محمّد بن أحمد (م ٣٢٨). رويا عنه بالإسناد.

٣ ـ راوياه هما: «سليمان بن الحكم» الخيّاط (م ٢٣٥) و «أحمد بن فرج» الضرير (م ٣٠٣) روى عن الدوريّ عنه.

٤ ـ راوياه هما: «الشنبوذي» محمد بن أحمد البغدادي (٣٨٨ ـ ٣٠٠). و «المطوّعي» الحسن بن سعيد البصريّ (م ٣٧١). رويا عنه مع الواسطة.

٥ ـ راجع: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ٢٤٦.

٦ ـ فقد كذب في سنة ولادته. و في انتسابه إلى حمير. و في إسناد قراءته إلى شيوخ لم‌يلتق بهم. أو إلى أُناس لم‌يكونوا مقرئين كعثمان و معاوية. قال: «قرأت على معاوية ...». معرفة القرّاء الكبار: ج ١، ص ٦٧. ومن ثمّ بعث سليمان بن عبد الملك مهاجراً ليُنحّيه عن إمامة المسجد بدمشق و يقول له: «تاخّر فلن يتقدّم منّا دعيّ». المصدر: ص ٦٨. و راجع ترجمته في هذا الكتاب: ص ١٨٦ برقم ٨ طبقة ٣.

نافع المدني ـ مستورا الحال. لكن نسبتهما إلى «فارس» بالخصوص[1] ربّما تكشف عن موقفهما من مذهب أهل البيت عليهم السلام لأنّهم أسبق من عرف الحقّ و لمسه في هذا الاتّجاه.

حفص و قراءتنا الحاضرة

كانت القراءة الدارجة بين المسلمين منذ العهد الأوّل حتّى عصرنا الحاضر هي القراءة التي تتوافق مع قراءة عاصم برواية حفص و كان لذلك سببان:

الأوّل: إنّ قراءة حفص كانت هي قراءة عامّة المسلمين و إنّ النسبة مقلوبة حيث كان حفص و شيخه عاصم حريصين على الالتزام بما وافق قراءة العامّة والرواية الصحيحة المتواترة بين المسلمين، و هي القراءة التي أخذها عاصم عن شيخه أبي عبد الرحمان السُلمي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام و لم يكن عليّ عليه السلام يقرأ إلّا بما وافق نصّ الوحي المتواتر بين المسلمين.

الثاني: إنّ عاصماً بين القرّاء المعروفين كان فريداً بسمات و خصائص جعلته علماً يشار إليه بالبنان فقد كان ضابطاً متقناً شديد الحذر والاحتياط فيمن يأخذ عنه القرآن، متثبّتاً. و من ثمّ لم يأخذ القراءة إلّا من أبي عبد الرحمن السُلمي عن علي عليه السلام و كان يعرضها على رزّ بن حبيش عن ابن مسعود. فالقراءة الحاضرة ـ قراءة حفص ـ قراءة شيعيّة خالصة، رواها

---

١ ـ فإنّ ابن كثير ينتهي نسبه إلى زاذان بن فيروزان بن هرمز، من أبناء فارس... و كان نافع أصله من إصبهان. راجع: التيسير: ٤. و غاية النهاية: ٢/ ٣٣٠، و ١/ ٤٤٣.

حفص ـ و هو من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام[١] عن شيخه عاصم ـ و هو من أعيان شيعة الكوفة الأعلام[٢] ـ عن شيخه السُلميّ[٣] ـ وكان من خواصّ علي عليه السلام ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن الله عزّوجلّ.

مضافاً إلى أنّ عاصماً جمع بين الفصاحة والإتقان والتحرير والتجويد. الأمر الذي خُصّ به الوصف في كتب تراجم القرّاء[٤] كما اختص بعلوّ الإسناد و ارتفاعه إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بواسطة واحدة، هو التابعي الكبير أبو عبد الرحمان عبدالله بن حبيب السُّلميّ. و كان حفص أتقن أصحاب عاصم و أعلمهم بقراءته.

الأسئلة

١. من الذي دوّن القراءات و جمعها في كتاب لأوّل مرّة؟
٢. من هو ابن مجاهد و ماذا فعل بالقراءات؟
٣. من هم القرّاء السبعة؟
٤. ما هو مذهب القرّاء السبعة؟
٥. لم صارت قراءة عاصم برواية حفص شايعة بين المسلمين؟
٦. أُذكر سند رواية قراءة حفص.

---

١ ـ راجع: الرجال للشيخ الطوسي: ١٧٦.

٢ ـ راجع: التأسيس للصدر: ٣٤٦.

٣ ـ المعارف لابن قتيبه: ٢٣٠، والتأسيس: ٣٤٢.

٤ ـ ابن الجزرى في شرح طيبة النشر: ٩، والمكرّر لسراج الدين الأنصاري: ٥.

الناسخ والمنسوخ

من طبيعة الحركة الإصلاحيّة الآخذة إلى التقدّم بوجه عامّ، أن يتوارد علىٰ تشريعاتها نسخ متتابع، حسب تدرّجها التصاعدي نحو قِمّة الكمال.

و هكذا استدعت التشريعات الإسلاميّة نسخاً متتالياً منذ أن ظهرت الدعوة في مكّة المكرّمة و حتّىٰ إلى مابعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة و قد انتهت شريعة النسخ ـ فيما يخصّ آي الذكر الحكيم ـ بوفاته صلى الله عليه وآله حيث انقطع الوحي.

و أوّل من جمع أُصول هذا العلم في تدوين جامع هو أبو محمّد عبدالله بن عبد الرّحمان الأصمّ المسمعيّ من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، له رسالة في الناسخ والمنسوخ.

تعريف النسخ:

النسخ هو رفع تشريع سابق ـ كان يقتضي الدّوام حسب ظاهره ـ بتشريع لاحق بحيث لايمكن اجتماعهما معاً، إمّا ذاتاً ـ إذا كان التنافي بينهما

بيّناً ـ أو بدليل خاصّ، من إجماع أو نصّ صريح.

إذن فرفع الحكم عن بعض أفراد العامّ، ليس نسخاً في الاصطلاح، بل هو تخصيص، إذ لم يرتفع التشريع السابق نهائيّاً، و إنّما اختصّ بسائر الأفراد.

و كذلك إذا كان الحكم محدوداً صريحاً من أوّل الأمر فارتفاعه بانتهاء أمده لايكون نسخاً في الاصطلاح.

و هكذا إذا ارتفع تكليف عند مصادفة حرج أو اضطرار أو ضرر شخصيّ أو لمصلحة وقتيّة ـ على مايفصّلها الفقهاء ـ لايكون من النسخ في شيء، إذ جميع ذلك لم يكن من ارتفاع التشريع، و إنّما تبدّل الموضوع بطروء أحد هذه العناوين. كما لو جاز للمضطرّ أن يأكل من الميتة بقدر مايسدّ رمقه، فإنّ مثل هذا الجواز لايكون نسخاً للحرمة الأصليّة التي كان موضوعها الإنسان المختار و قد تبدّل إلى إنسان مضطرّ.

حقيقة النسخ:

النسخ في حقيقته الأوّليّة ـ بمعنى «نشأة رأي جديد» ـ مستحيل عليه تعالى، إذ هو بذاك المعنى يستدعي تبدّل رأي المشرِّع، بظهور خطأ أو نقص في تشريعه السابق، عثر عليه متأخّراً فأبدل رأيه إلى تشريع آخر ناسخ للأوّل، و يكون هذا الأخير هو الكامل الصحيح في نظره فعلاً، و يجوز تبدّل رأيه ثانياً و ثالثاً إلى تشريع ثالث و رابع و هكذا، مادام يحتمل خطأه في كلّ تشريع. هذا المعنى إنّما يختصّ المشرِّعين غير المحيطين بالمصالح والمفاسد الكامنة وراء الأُمور. أمّا العالم بالخفايا المحيط بجوامع الواقعيات في

طول الزمان و عرضه على حدّ سواء فيمتنع عليه أن يخطأ في إصابة الواقع، أو يفوته نقص كان غافلاً عنه ثمّ وجده.

إذن فالنسخ المنسوب إليه تعالىٰ نسخ في ظاهره، أمّا الواقع فلا نسخ أصلاً و إنما هو حكم موقّت و تشريع محدود من أوّل الأمر و انّه تعالىٰ لم يشرّعه حين شرّعه إلّا و هو يعلم أنّ له أمداً ينتهي إليه و إنّما المصلحة الواقعيّة اقتضت هذا التشريع الموقّت. لكن لمصلحة في التكليف أخفىٰ تعالىٰ بيان الأمد ثمّ في نهاية الأمد جاء البيان إلى الناس: إنّ هذا التشريع قد انتهى بهٰذا الأجل. و من المصلحة الاختبارُ بتوطينهم على الطاعة فيما كان التكليف السابق شاقّاً ـ مثلاً ـ و غير ذلك. و عليه فالتعبير عن هذه الظاهرة الدينيّة بالنسخ تعبير ظاهري و ليس من الحقيقة في شيء.

الفرق بين النسخ والبداء:

النسخ خاصّ بالتشريعيات ـ اصطلاحاً ـ والبداء بالتكوينيات. و إنّ كلّاً منهما في مفهومه الأصلي ـ و هو تبدّل الرأي ـ مستحيل على الله تعالىٰ بالقياس إلى علمه تعالىٰ الأزلي المحيط، بلافرق. إذن فكما أنّ النسخ إنّما كان بمعناه الظاهري مستعملاً في الشريعة و هو ظهور الشيء بعد خفاه على الناس، فكذلك البداءُ ظهورُ أمرٍ بعدَ خفاءٍ. سوىٰ أنّ الأوّلَ ظهورُ أمدِ حكمٍ كان معلوماً عندالله خافياً على الناس، والثاني ظهور أمر أو أجل كان محتماً عنده تعالىٰ من الأزل، و خافياً على الناس ثمّ بدا لهم أي: ظهرت لهم حقيقته.

الفرق بين النسخ والتخصيص:

إطلاق النسخ على التخصيص كان شائعاً في متداول السلف، و من ثمّ أكثروا القول في عدد الآي المنسوخة.

و يفترق النسخ عن التخصيص: إنّ النسخ قطع لاستمرار التشريع السابق بالمرّة بعد أن عمل به المسلمون في فترة من الزّمن طويلة أم قصيرة. أمّا التخصيص فهو قصر الحكم العام على بعض أفراد الموضوع و إخراج البقيّة عن الشمول، قبل أن يعمل المكلّفون بعموم التكليف. فالنسخ اختصاص للحكم ببعض الأزمان. والتخصيص اختصاصه ببعض الأفراد، ذاك تخصيص أزماني و هذا تخصيص أفرادي و لايشتبه أحدهما بالآخر.

شروط النسخ في القرآن:

الأوّل: تحقّق التنافي بين تشريعين وقعا في القرآن، بحيث لايمكن اجتماعهما في تشريع مستمرّ، تنافياً ذاتيّاً، كما في آيات وجوب الصفح مع آيات القتال، فإنّ قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِيْنَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِيْنَ لايَرْجُونَ أيّامَ اللهِ﴾[1] أمر بالصفح عن المشركين إذ كان المؤمنون بمكّة في ضعف شديد فنسخت بالإذن في القتال أوّلاً بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِيْنَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إنَّ اللهَ عَلىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيْرٌ﴾.[2] ثمّ التحريص عليه بقوله

١ـ الجاثية: ١٤.

٢ـ الحج: ٣٩.

تعالىٰ: ﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤمِنينَ عَلى الْقِتالِ﴾[١] و أخيراً باستئصال المشركينَ عامَّةً بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِيْنَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.[٢]

أو بدليل قاطع دلّ على نقض التشريع السابق بتشريع لاحق. كما في آية الإمتاع إلى الحول مع آية الاعتداد بأربعة أشهر و عشرة أيّام و آية المواريث فإنّ قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِيْنَ يُتَوفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً وَصِيَّةً لِأَزْواجِهِمْ مَتاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْراجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِي ما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾،[٣] نسخت بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِيْنَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً﴾[٤] و قوله تعالىٰ: ﴿وَ لَهُنَّ الرُّبُعُ مِمّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَم يكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كانَ لكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُمُنُ مِمّا تَرَكْتُمْ﴾.[٥] فقد قام الإجماع على نسخ الأُولىٰ بالأخيرتين.[٦]

الثاني: أن يكون التنافي كلّاً على الإطلاق، لا جزئيّاً و في بعض الجوانب، فإنّ الثاني تخصيص في الحكم العامّ، و ليس من النسخ في شيء. فإنّ قوله تعالى: ﴿وَ القَواعدُ مِن النِّساءِ الّتي لا يَرجُونَ نكاحاً فليس عليهنّ

---

١ ـ الأنفال: ٦٥.

٢ ـ التوبة: ٥.

٣ ـ البقرة: ٢٤٠.

٤ ـ البقرة: ٢٣٤.

٥ ـ النساء: ١٢.

٦ ـ راجع: تفسير المختصر لشبّر رحمه الله: ٧٦ ط م.

جُناحٌ أن يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيرَ مُتَبَرِّجاتٍ﴾،[١] لاتصلح ناسخة لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلمُؤمناتِ يَغْضُضْنَ مِن أبصارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلّا ما ظَهَرَ منها وَ لْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلّا لِبُعُولَتِهِنَّ أو آبائِهِنَّ...﴾،[٢] بعد أن كانت الأُولىٰ أخصّ من الثانية والخاصّ لاينسخ العامّ بل يخصّصه بما عداه من أفراد الموضوع.

الثالث: أن لايكون الحكم السابق محدّداً بأمد صريح، لأنّ الحكم بنفسه يرتفع عند انتهاء أمده من غير حاجة إلى النسخ. فمثل قوله تعالى: ﴿فَقاتِلُوا الّتِي تَبْغِي حَتّىٰ تَفِيْءَ إلى أمْرِ اللهِ﴾،[٣] لايصدق عليه النسخ عندما تفيء الفئة الباغية و ترجع إلى رشدها والتسليم لحكم الله.

الرابع: أن يتعلّق النسخ بالتشريعيّات، فلا نسخ فيما يتعلّق بالأخبار. فقوله تعالىٰ: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوّلِيْنَ * و ثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِيْنَ﴾،[٤] لايصلح ناسخاً لقوله تعالىٰ: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِيْنَ * وَ قَلِيْلٌ مِنَ الآخِرِيْنَ﴾.[٥] فيما زعمه مقاتل بن سليمان لأنّ الآية إخبار عن واقعيّة لاتتغيرّ بالوجوه والاعتبار.

و هكذا الإباحة الأصليّة ترتفع بحدوث التشريع من غير أن يكون ذلك نسخاً، حيث إنّ تلك الإباحة لم تكن بتشريع، و إنّما كانت بحكم العقل

---

١ ـ النور: ٦٠.

٢ ـ النور: ٣١.

٣ ـ الحجرات: ٩.

٤ ـ الواقعة: ٣٩ ـ ٤٠.

٥ ـ الواقعة: ١٣ ـ ١٤.

الفطري (البراءة العقليّة)، موضوعها: عدم التشريع فترتفع بالتشريع.

الخامس: التحفّظ على نفس الموضوع، إذ عندما يتبدّل موضوع حكم إلى غيره، فإنّ الحكم يتغيّر لامحالة حيث إنّ الحكم قيد موضوعه. و ليس هذا نسخاً، فمثل قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لاعَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْه﴾،[١] ليس ناسخاً لقوله تعالىٰ: ﴿إِنّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدّمَ﴾.[٢] الأمر الذي اشتبه على كثير ممّن كتب في النسخ كابن حزم.[٣]

صنوف النسخ في القرآن

النسخ في القرآن يتصوّر على أقسام:

الأوّل: نسخ الحكم والتلاوة معاً: بأن تسقط من القرآن آية كانت ذات حكم تشريعي و كان المسلمون يقرأونها و يتعاطون حكمها، ثمّ نسخت و بطل حكمها و محيت عن صفحة الوجود رأساً و هذا النوع من النسخ مرفوض عندنا، ﴿لايَأْتِيْهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لامِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.[٤]

والقائلون بهذا القول استندوا إلى حديث عائشة، قالت: «كان فيما أُنزل من القرآن: «عشر رضعات معلومات يحرّمن»، ثمّ نسخن بـ«خمس

١ـ البقرة: ١٧٣.

٢ـ البقرة: ١٧٣.

٣ـ رسالة الناسخ والمنسوخ ـ بهامش الجلالين: ٢/ ١٦١.

٤ـ فصّلت: ٤٢.

معلومات» قالت: و توفّي رسول‌الله ﷺ و هنّ فيما يقرأ من القرآن.[١] وكانت الصحيفة تحت السرير فاشتغلنا بدفن رسول‌الله ﷺ فدخل داجن البيت فأكله».[٢] و هذا حديث واحد يرجع إلى التلاعب بالقرآن الكريم مضافاً إلى أنّ هذا القول يرجع إلى القول بالتحريف و نسيان آية تتلى حتّى وفاة رسول‌الله ﷺ، الأمر الذي ينكره جماعة المسلمين. و معلوم أنّ بما ذكرته عائشة لاينعدم حفظه من القلوب و لايتعذّر عليهم إثباته في صحيفة أُخرىٰ، فعرفنا أنّه لا أصل لهذا الحديث.

الثاني: نسخ التلاوة دون الحكم: بأن تسقط آية من القرآن الحكيم، كانت تقرأ، و كانت ذات حكم تشريعيّ، ثمّ نسيت و محيت عن صفحة الوجود لكن كان حكمها بقي مستمرّاً غير منسوخ. و هذا النوع من النسخ أيضاً عندنا مرفوض، لأنّ القائل بذلك إنّما يتمسّك بأخبار آحاد زعمها صحيحة الإسناد، وغفل عن أنّ نسخ آية محكمة شيء لايمكن إثباته بأخبار آحاد لاتفيد سوىٰ الظنّ و ﴿إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شيئاً﴾.

هٰذا فضلاً عن منافاته لمصلحة نزول نفس الآية أو الآيات إذ لو كانت المصلحة التي كانت تقتضي نزولها هي اشتمالها على حكم تشريعي ثابت فلماذا ترفع الآية وحدها، في حين اقتضاء المصلحة بقاءها لتكون سنداً للحكم الشرعي المذكور. والالتزام بذلك التزام صريح بتحريف القرآن

١ـ صحيح مسلم: ٤/ ١٦٧.

٢ـ أُصول السرخسي: ٢/ ٧٨ـ ٨٠.

وحاشاه من كتاب إلهي خالد مضمون بالحفظ مع الخلود.

قال السرخسي: «إنّ صوم كفارة اليمين ثلاثة أيّام متتابعة، بقراءة ابن مسعود: «فصيام ثلاثة أيّام متتابعات». و قد كانت هذه قراءة مشهورة إلى زمن أبي حنيفة، و لكن لم يوجد فيها النقل المتواتر، الذي يثبت بمثله القرآن، و ابن مسعود لايشكّ في عدالته وإتقانه، فلا وجه لذلك إلّا أن نقول: كان ذلك ممّا يتلى في القرآن ـ كما حفظه ابن مسعود ـ ثمّ انتسخت تلاوته في حياة رسول الله ﷺ بصرف القلوب عن حفظها إلّا قلب ابن مسعود ليكون الحكم باقياً بنقله، فإنّ خبر الواحد موجب للعمل به، و قراءته لاتكون دون روايته، فكان بقاء هذا الحكم بعد نسخ التلاوة بهذا الطريق».[1] و لا يخفى سخافة هذا الاستدلال.

الثالث: نسخ الحكم دون التلاوة: وذلك بأن تبقى الآية ثابتة في الكتاب يقرؤها المسلمون عبر العصور سوىٰ أنّها من ناحية مفادها التشريعيّ منسوخة، لايجوز العمل بها بعد مجيء الناسخ القاطع لحكمها. و هذا النوع من النسخ هو المعروف بين العلماء والمفسّرين و اتّفق الجميع على جوازه إمكاناً و على تحقّقه بالفعل أيضاً حيث توجد في القرآن الحاضر آيات منسوخة و آيات ناسخة. و كانت لهذا النوع من النسخ أنحاء ثلاثة، وقع الكلام في إمكان بعضها:

الأوّل: أن ينسخ مفاد آية كريمة بسنّة قطعيّة أو إجماع محقّق، كقوله

---

١ ـ أُصول السرخسي: ٢/ ٨١.

تعالى: ﴿وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾،[١] فإنّه ـ بظاهره ـ لايتنافى مع قوله: ﴿وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وعَشْراً﴾،[٢] و قوله: ﴿وَ لَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَ لَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾،[٣] غير أنّ السنّة القطعية و إجماع المسلمين أثبتا نسخ الأوّل بالأخيرين.

الثاني: أن ينسخ مفاد آية بآية أُخرىٰ، بحيث تكون الثانية ناظرة إلى مفاد الأُولى و رافعة لحكمها بالتنصيص، و لولا ذلك لم‌يكن موقع لنزول الثانية و كانت لغواً. مثلاً: قوله تعالى ﴿يا أَيُّها الّذينَ آمَنُوا إذا ناجَيْتُم الرَّسولَ فَقَدِّمُوا بَينَ يَدَي نَجواكم صَدَقةً﴾[٤] أوجب التصدّق بين يَدَي مناجاة الرسول ﷺ، و نسخته قوله تعالىٰ: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَي نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾.[٥] و هذا النحو من النسخ لم يختلف فيه أحد.

الثالث: أن تنسخ آية بأُخرىٰ من غير أن تكون إحداهما ناظرة إلى الأُخرىٰ سوىٰ أنّهم وجدوا التنافي بين الآيتين، بحيث لم يمكن الجمع بينهما

---

١ ـ البقرة: ٢٤٠.

٢ ـ البقرة: ٢٣٤.

٣ ـ النساء: ١٢.

٤ ـ المجادلة: ١٢.

٥ ـ المجادلة: ١٣.

تشريعياً و من ثمّ أخذوا الثانية المتأخرة نزولاً ناسخاً للأُولىٰ.

و يجب أن يكون التنافي بين الآيتين كليّاً ـ علىٰ وجه التباين الكلّي ـ لا جزئيّاً و في بعض الوجوه، و يشترط في هذا القسم الثالث، وجود نصّ صحيح و أثر قطعيّ صريح، يدعمه إجماع القُدامىٰ، إذ من الصعب جدّاً الوقوف على تاريخ نزول آية في تقدّمها و تأخّرها، و لا عبرة بثبت آية قبل أُخرىٰ في المصحف، إذ كثير من آيات ناسخة هي متقدّمة في ثبتها على المنسوخة، كما في آية العِدَد برقم: ٢٣٤ من البقرة و هي ناسخة لآية الإمتاع إلى الحول برقم: ٢٤٠ من نفس هذه السورة، و هذا إجماع.

كما أنّ التنافي ـ على الوجه الكلّي ـ لايمكن القطع به بين آيتين قرآنيّتين سوىٰ عن نصّ معصوم عليه السلام، لأنّ للقرآن ظاهراً و باطناً و محكماً و متشابهاً و ليس من السهل الوقوف على كنه آية مهما كانت محكمة.

إشكال: إنّ الالتزام بوجود آيات ناسخة و آيات منسوخة في القرآن يستدعي وجود تناف بين آياته الكريمة، الأمر الذي يناقضه قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.[1]

جواب: إنّ الاختلاف الذي تنفيه الآية الكريمة هو ما إذا كان حقيقيّاً في ظرف الواقع، أمّا إذا كان شكليّا و في ظاهر الأمر ـ كما بين الناسخ والمنسوخ ـ فلا تناقضه الآية. مثلاً: يشترط في الاختلاف الحقيقيّ

---

١ ـ النساء: ٨٢.

(التناقض) أُمور ثمانية،[١] منها: وحدة الزمان و وحدة الملاك والشرط، و إذا تخلّف آحدها فلا تنافي و لا اختلاف، كما في الناسخ، ظرفه متأخر و ملاكه مصلحة أُخرىٰ، تبدّلت عن مصلحة سابقة كانت مستدعية لذلك الحكم المنسوخ.

إشكال آخر: ما هي الفائدة وراء ثبت الآية المنسوخة في القرآن؟

جواب: لا تنحصر فائدة آية قرآنيّة في الحكم التشريعي فقط، بل للآية أهداف كثيرة، منها ـ مضافة إلى الإعجاز والتحدّي العام ـ الدلالة على مراحل الدعوة الإسلاميّة.

الأسئلة

١. عرّف النسخ.
٢. لِمَ لايكون رفع الحكم عن بعض أفراد الموضوع العامّ نسخاً؟
٣. هل ارتفاع التكليف عند الحرج أو الاضطرار يكون نسخاً؟ لماذا؟
٤. لِمَ لايصحّ النسخ ـ بمعناه الحقيقي ـ على الله تعالى؟ بَيِّنْ ذلك.
٥. ما الفرق بين النسخ و البداء؟
٦. ما الفرق بين النسخ والتخصيص؟
٧. أُذكر شروط النسخ في القرآن.

---

١ ـ راجع: المنطق للعلامة المظفّر: ٢/ ٤٢.

٨. ما المراد من تحقق التنافي بين تشريعين؟ مثّل لذلك.

٩. لماذا لاتكون آية القواعد من النساء ناسخة لآية الغضّ؟

١٠. هل النسخ يتعلّق بالتشريعيات أو بالأخبار أو بالتكوينيات؟

١١. هل ارتفاع الإباحة الأصليّة بحدوث التشريع يكون نسخاً؟ لماذا؟

١٢. أُذكر صنوف النسخ في القرآن إجمالاً.

١٣. ما المراد من نسخ الحكم والتلاوة معاً؟ و بم استدلّ القائلون بهذا النسخ؟ و ما الجواب على ذلك؟

١٤. ما المراد من نسخ التلاوة دون الحكم؟ و هل يكون شيء من ذلك في القرآن؟ بيّن ذلك؟

١٥. ما المراد من نسخ الحكم دون التلاوة؟ و هل يكون شيء من ذلك في القرآن؟

١٦. أُذكر أنحاء نسخ الحكم دون التلاوة و مثّل لذلك.

١٧. هل الالتزام بالنسخ يستدعي وجود التنافي بين آيات القرآن؟ بيّن ذلك.

١٨. ما هي الفائدة وراء ثبت الآية المنسوخة في القرآن؟

المحكم والمتشابه

الإحكام: هو الإتقان، يوصف به الكلام إذا كان ذا دلالة واضحة، بحيث لايحتمل وجوهاً من المعاني. مأخوذ من الحَكَم ـ بالفتح ـ بمعنىٰ المنع والسدّ، و منه حَكَمَة اللجام ـ بفتحات ـ ما أحاط بحنكى الفرس، سميت بذلك لأنّها تمنعه من الجري الشديد، قاله ابن فارس. فإحكام الكلام: إتقانه تعبيراً و أداءً بالمقصود. و هذا كأكثر آيات التشريع والمواعظ والآداب.

والتشابه: مأخوذ من تشابه الوجوه، أي تماثل بعضها مع البعض، بحيث يحتمل وجوهاً من المعاني، و من ثمّ كان خفاء فى وجه المقصود و منه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنَا﴾.[1] قال الراغب: «المحكم ما لاتعرض فيه شبهة، لا من حيث اللفظ و لا من حيث المعنىٰ، والمتشابه ما لا ينبىء ظاهره عن المراد».

---

١ ـ البقرة: ٧٠.

و عليه فالمتشابه ـ حسب المصطلح القرآني ـ هو اللفظ المحتمل لوجوه من المعاني و كان موضع ريب و شبهة، و من ثمّ فهو كما يصلح للتأويل إلى وجه صحيح، يصلح للتأويل إلى وجه فاسد، و لأجل هذا الاحتمال وقع مطمع أهل الزيغ والفساد، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله إلى ما يتوافق مع أهدافهم الضالّة.

والتفسير هو كشف القناع عن اللفظ المشكل ـ أي المبهم ـ سواء أكان متشابهاً أم لم يكن والتأويل هو إرجاع الكلام إلى أحد محتملاته العقلانيّة و لو كان ـ في ظاهره ـ واضح المدلول.

عوامل التشابه و عوامل الإبهام:

من أهمّ **عوامل التشابه** هو دقّة المعنى و علوّ مستواه عن المستوى العامّ مضافاً إلى رقّة التعبير و جزالة الأداء كما في قوله تعالىٰ: ﴿اللهُ نورُ السّمٰواتِ وَالأَرْضِ﴾[1] فقد وقع فيها تشبيه ذاته المقدّسة بالنور، و هو أدقّ تعبير في تقريب ذاته المقدّسة إلى أفهام العامّة، إذ لو قيل للجمهور: «الله تعالى لا ماهيّة له، و لا هو جسم و لا فيه خواصّ الجسم»، لم يقتنعوا. كيف لا ماهية له و لا جسم؟ فإذا قيل لهم: «إنّه نور»، اقتنعوا، في حين أنّ نفس الإجابة صحيحة يعرفها الراسخون في العلم، إذ كما أنّ النور ـ في المحسوس ـ غير قابل للإدراك ذاتاً، و إنّما يحسّ به من قبل إنارته للأشياء، كذلك

---

١ ـ النور: ٣٥.

وجوده تعالى ـ في غير المحسوس ـ لا يدرك هو، و إنّما يدرك بإفاضته الوجود على الموجودات، فالله تبارك و تعالىٰ يتجلّىٰ من خلال كلّ موجود و ليس يُدرك ذاتاً، كالنّور سبب لإدراك الأشياء و تعجز الأبصار عن إدراكه بالذات.[١]

و أمّا عوامل الإبهام المحوجة إلى التفسير، فتعود إلى جهات أُخر:

منها: غرابة الكلمه عن المألوف العام، نظراً لاختصاص استعمالها ببعض القبائل دون بعض، فجاء القرآن ليوحّد اللّغة باستعمال جميع لغات العرب، من ذلك «صَلْداً» بمعنىٰ «نَقِيّاً» في لغة هذيل، و «المِنْسَأة» بمعنىٰ «العصا» في لغه حضرموت و غير ذلك.

و منها: إشارات عابرة جاءت في عرض الكلام، بحيث يحتاج فهمها إلى درس عادات و مراجعة تاريخ، كالنسيء في قوله تعالى: ﴿إنّما النَّسِيءُ زِيادةٌ في الكُفرِ﴾،[٢] أو تعابير إجماليّة يحتاج الوقوف على تفاصيلها إلى مراجعة السنّة و أقوال السلف، كقوله تعالىٰ ﴿أقِيمُوا الصّلاةَ﴾ و ﴿آتُوا الزَّكاةَ﴾ و ﴿للهِ على النّاسِ حِجُّ البيتِ﴾ و أمثال ذلك.

و منها: تعابير عامّة صالحة لمعاني لا يعرف المقصود منها إلّا بمراجعة ذوي الاختصاص، كالبرهان في سورة يوسف: ﴿لَوْلا أنْ رَأىٰ بُرْهانَ رَبِّه﴾[٣]

---

١ ـ راجع: الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد: ص ٩٢ ـ ٩٣.

٢ ـ سورة براءة: ٣٧.

٣ ـ يوسف: ٢٤.

والكوثر في: ﴿إِنّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ﴾[١] و أمثال ذلك.

و منها: استعارات بعيدة الأغوار، يحتاج البلوغ إليها إلى تعمّق كثير، كقوله تعالىٰ: ﴿اَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيْهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾.[٢] و نحو ذلك.

و عليه فبين عوامل التشابه و عوامل الإبهام فرق و لايشتبه مورد أحدهما بالآخر و إن كانا يشتركان في خفاء المراد بالنظر إلى ذات اللفظ.

هل في القرآن متشابه؟

لا شكّ أنّ القرآن كما هو مشتمل على آيات محكمات في أكثريّة غالبة، مشتمل على آيات متشابهات في عدد قليل. قال تعالىٰ: ﴿هُوَ الّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنّ أُمُّ الكِتابِ وَ أُخَرُ مُتشابِهاتٌ﴾.[٣]

سؤال: هلّا كانت جميع آي القرآن محكمات؟ فكان ذلك أسلم من الالتباس و أقرب إلى طرق الاهتداء العامّ.

جواب: إنّ وقوع التشابه في القرآن ـ الكتاب السماوي الخالد ـ شيء كان لامحيص عنه، مادام كان يجري في تعابيره الرقيقة مع أساليب القوم، في حين سموّ محتواه عن مستواهم الهابط. القرآن جاء بمفاهيم حديثة كانت غريبة في طبيعة المجتمع البشري آنذاك، و لاسيّما جزيرة العرب البعيدة عن

١ـ الكوثر: ١.

٢ـ يس: ٦٥.

٣ـ آل عمران: ٧.

أنحاء الثقافات، في حين التزامه ـ في تعبيراته الكلامية ـ نفس الأساليب التي كانت دارجة ذلك العهد.

كانت الألفاظ والكلمات ـ التي كانت العرب تستعملها في محاوراتها ـ محدودة حسبما كانت العرب تألفه من معان محسوسة أو قريبة من الحسّ و مبتذلة إلى حدٍّما. فجاء استعمالها من قبل القرآن غريباً عن المألوف العامّ. و من ثمّ قصرت أفهامهم عن إدراك حقائقها ماعدا ظواهر اللفظ والتعبير. إذ كانت الألفاظ تقصر بالذات عن أداء مفاهيم لم تكن تطابقها، و من ثمّ كان اللجوء إلى صنوف المجاز و أنواع الاستعارات أو الإيفاء بالكناية و دقائق الإشارات. الأمر الذي قرّب المفاهيم القرآنيه إلى مستوىٰ أفهام العامّة من جهة و بعّدها من جهة أُخرىٰ. قرّبها من جهة إخضاعها لقوالب لفظيّة كانت مألوفة لدى العرب. و بعّدها حيث سموّ المعنىٰ كان يأبىٰ الخضوع لقوالب لم تكن موضوعة لمثله. هذا هو السبب الأقوىٰ لوقوع التشابه في تعبيرات القرآن بالذّات. مثلاً: جاء التعبير المجازي في آيتين لاتختلفان من حيث الأداء والتعبير، غير أنّ إحداهما لمّا كانت تعبّر عن معنىً هو فوق مستوى العامّة، حصل فيهاالتشابه، أمّا الأُخرىٰ فكانت تعبيراً عن معنىً محسوس، ومن ثمّ لم يقع فيها إشكال. فقوله تعالىٰ: ﴿إِلىٰ رَبِّها نـاظِرَةٌ﴾[1] فيها مجاز الحذف، أى «إلى رحمة ربّها ناظرة» كما في آية أُخرىٰ نظيرتها: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾،[2] أي «واسأل أهلَ القريةِ»، غير أنّ الأُولى صارت

١ ـ القيامة: ٢٣.

٢ ـ يوسف: ٨٢.

متشابهة، لقصور أفهام العامّة عن إدراك مقام الأُلوهيّة، فحسبوا منها جواز رؤيته تعالى. أمّا الآية الثانية فلم تتوقّف في فهم حقيقتها، لأنّها في معنىً محسوس.

و هناك عامل آخر كان ذاأثر في إيجاد التشابه في غالب الآيات الكريمة، إذ لم تكن متشابهة من قبل، و إنّما حدث التشابه فيها على ظهور مذاهب جدليّة، بعد انقضاء القرن الأوّل الذى مضى بسلام. مثلاً: لما سمعت العرب قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾،[1] ربّما لاتفهم منه سوىٰ استقلاله تعالىٰ بملكوت السماوات والأرض و تدبيره لشؤون هذا العالم نظير قول شاعرهم:

ثُمَّ اسْتَوىٰ بِشْرٌ عَلىٰ العِراقِ مِنْ غَيْر سيفٍ ودمٍ مُهْراقِ

لكنّ الأشاعرة ـ و من ورائهم سائر أهل التشبيه ـ أبوا إلّا تفسيره بالاستقرار على العرش جلوساً متربّعاً فوق السماوات العلىٰ، و قد ينزل إلى السماء الدنيا ليطّلع على شؤون خلقه فيغفر لهم و يجيب دعاءهم، إذ لايمكنه ذلك و هو متربّع على كرسيّه فوق السماوات.[2]

حقيقة التأويل

التأويل يستعمل بمعنى توجيه المتشابه، و هو تفعيل من الأوْل بمعنى الرجوع، لأنّ المؤوِّل عندما يُخَرِّج للمتشابه وجهاً معقولاً، هو آخذ بزمام

---

١ ـ يونس: ٣.

٢ ـ راجع: الإبانة، ٣٥ فما بعد. و رسالة الرّد على الجهميّة للدارمي، ص ١٣ فما بعد.

اللفظ ليعطفه إلى الجهة التي يحاول التخريج إليها و من ثمّ يستعمل في تبرير العمل المتشابه أيضاً كما في قصّة خضر عليه السلام، قال لصاحبه: ﴿سَأُنَبِّؤُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾.[١] أي: سأطّلعُك على السرّ المبرِّر لأعمال أثارت شكوكك و دعتك إلى الاعتراض.

إذن فكلّ لفظ أو عمل متشابه ـ أى مثير للرّيب ـ إذا كان له توجيه صحيح، فهذا التوجيه تأويله لا محالة. و عليه فالفرق بين التفسير والتأويل هو أنّ الأوّل توضيحُ ما لجانب اللفظ من الإبهام، والثاني توجيهُ ما فيه من مثار الريب، و قد سبق ما بين عوامل الإبهام والتشابه من فرق.

و قد اصطلحوا ـ أيضاً ـ على استعمال التأويل في معنى ثانويّ للآية، فيما لم تكن بحسب ذاتها ظاهرة فيه، و إنّما يتوصَّل إليه بدليل خارج، و من ثمّ يعبّر عنه بالبطن، كما يعبّر عن تفسيرها الأوّلي بالظهر، فيقال: «تفسير كلِّ آية ظهرها و تأويلها بطنها». والتأويل بهذا المعنى الأخير عامٌّ لجميع آي القرآن، كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «ليس من القرآن آية إلّا و لها ظهر و بطن».[٢] و قال الإمام الباقر عليه السلام: «ظهر القرآن الّذين نزل فيهم، و بطنه الّذين عملوا بمثل أعمالهم».[٣] فقد جاء التنزيل في كلامه عليه السلام بمعنى التفسير، أي إنّ للآية مورد نزول يكشف عن مدلولها الأوّلي المنصرم و

---

١ ـ الكهف: ٧٨.

٢ ـ بحار الأنوار: ٣٣/١٥٥.

٣ ـ تفسير العياشي: ١/ ١١، بحار الأنوار: ٩٢/ ٩٤ رقم ٤٦.

يعبّر عنه بسبب النزول، و لا غنى للمفسّر عن معرفة أسباب النزول في كشف إبهام الآية، كما في آية النسيء ـ التوبة: ٣٧ ـ و غيرها.

نعم هناك عموم ثابت أبدي تنطوي عليه الآية، و بذلك تشمل عامّة المكلّفين مع الأبديّة و هو بطنها و تأويلها الذي يعرفه الراسخون في العلم، و لولا ذلك لبطلت الآية. قال الإمام الباقر عليه السلام: «و لو أنّ الآية إذا نزلت في قوم ثمّ مات اولئك القوم ماتت الآية، لما بقي من القرآن شيء و لكن القرآن يجري أوّله على آخره مادامت السماوات والأرض، و لكلّ قوم آية يتلونها هم منها من خير أو شرّ».[1] فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها و لكنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقىٰ وَأْتُوا البيوتَ مِنْ أبْوابِها وَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2] نزلت رادعة لعادة جاهليّة، كان الرجل إذا أحرم نقب في مؤخّر بيته نقباً، منه يدخل و يخرج. و هذه العادة أصبحت لا وجود لها بعد أن باد أهلها. غير أنّ الآية لم تمت بذلك و إنّما بقي عموم ردعها عن إتيان الأُمور من غير وجوهها بصورة عامّة[3] فهذا تأويلها المنطوي عليه الآية، يعمل بها مع الأبد.

و من ذلك تأويل الرؤيا لأنّه معنىً خفيّ باطن لايعرفه سوىٰ الّذين أُوتوا العلم. و قد استعمل التأويل في تعبير الرؤيا في القرآن في ثمانية مواضع من سورة يوسف: ٦، ٢١، ٣٦، ٣٧، ٤٤، ٤٥، ١٠٠، ١٠١.

---

١ ـ تفسير العياشي: ١/ ١٠، رقم ٧. و تفسير الصافي: ١/ ١٤.

٢ ـ البقرة: ١٨٩.

٣ ـ راجع: تفسير شبّر: ٦٧، طبعة الكشميري.

و استعمل بمعنىٰ «مآل الأمر» في خمسة مواضع: النساء: ٥٩، الإسراء: ٣٥، الأعراف: ٥٣، مكرّرة، يونس: ٣٩.

و بمعنىٰ «توجيه المتشابه» في أربعة مواضع: آل عمران: ٧ مكرّرة، الكهف: ٧٨، ٨٢.

أمّا استعماله بمعنى «البطن» فقد جاء في الآثار ـ كما تقدّم ـ و قد أخذ منه تعبير الرؤيا كما نبّهنا.

هل يعلم التأويلَ غيرُ الله؟

لا شكّ أنّ القرآن كما هو مشتمل على آيات محكمات مشتمل على آيات متشابهات. و لا محالة يقصدها أهل الأهواء والأطماع الفاسدة، ابتغاء تأويلها و انحرافها إلى ما يلتئم مع أهدافهم الباطلة، و قد جاء التصريح بذلك في نفس الآية: ﴿فَأَمَّا الَّذِيْنَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيْلِهِ﴾.[1] فلولا وجود علماء ربانيّين في كلّ عصر و مصر ينفون عنه تأويل المبطلين ـ كما في الحديث الشريف[2] ـ لأصبح القرآن معرضاً للفساد في الدين. فيجب ـ بقاعدة اللطف ـ وجود علماء عارفين بتأويل المتشابهات على وجهها الصحيح، ليقفوا سدّاً منيعاً في وجه أهل الزيغ والباطل دفاعاً عن الدين و عن تشويه آي الذكر الحكيم.

---

١ ـ آل عمران: ٧.

٢ ـ راجع: سفينة البحار: ١/ ٥٥.

و أيضاً لو كانت الآي المتشابهة ممّا لايعرف تأويلها إلّا الله، لأصبح قسط كثير من آي القرآن لافائدة في تنزيلها سوىٰ ترداد قراءتها، و قال تعالىٰ: ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبابِ﴾،[1] و لنفرض أنّ الأُمّة ـ عندما وقفت على آية متشابهة ـ راجعت علماءها في فهم تلك الآية، فأبدوا عجزهم عن معرفتها، فذهبوا ـ والعلماء معهم ـ إلىٰ أحد الأئمّة المعصومين عليهم السلام خلفاء الرسول صلى الله عليه وآله فكان الجواب اختصاص علمها بالله تعالىٰ، لكنّهم لم يقتنعوا بهذا الجواب فذهبوا جميعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله سائلين: «ما تفسير آية أنزلها الله إليك لنتدبّرها»؟ فإذا النبي صلى الله عليه وآله لايفترق عن آحاد أُمّته في الجهل بكتاب الله العزيز الحميد! أوَ ليست الأُمم تسخر أُمّة عمّها و علماءها و أئمّتها و نبيّها الجهلُ بكتابها الّذي هو أساس دينها مع الخلود؟ أوَ ليس النّبي صلى الله عليه وآله هو الّذي أرجع أُمّته إلى القرآن إذا ما التبست عليهم الأُمور كقطع الليل المظلم؟[2] فبماذا يرجعون إذا التبس عليهم القرآن ذاته؟ مضافاً إلى أنّا لم نجد من علماء الأُمّة ـ منذ العهد الأوّل فإلى الآن ـ من توقّف في تفسير آية قرآنيّة بحجّة أنّها من المتشابهات لايعلم تأويلها إلّا الله.

سؤال: ماذا يستفاد من الآية: ﴿وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرّاسِخُونَ

---

١ ـ ص: ٢٩.

٢ ـ راجع: الكافي الشريف: ٢/ ٥٩٩.

فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾،[١] هل الواو للتشريك أو الإستئناف؟

جواب: أمّا بالنظر إلى ذات الآية، فلعلّ دلالتها على التشريك واضحة، لأنّ مناسبة الحكم والموضوع تستدعي أن يكون المنسوب إلى الراسخين في العلم من جنس ما يتناسب مع المعرفة الكاملة، أمّا الإيمان الأعمىٰ فلا مناسبة بينه و بين الرسوخ في العلم. و عليه فرعاية المناسبة هي التي تستدعي وجوب التشريك، ليكون الراسخون في العلم ـأيضاًـ عالمين بتأويل المتشابهات.

واعترض: بأنّ مقتضىٰ التشريك هو تساوي العلماء مع الله و لو في هذه الجهة الخاصّة و قد قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.[٢]

و أُجيب: بأنّ شرف العلم هو الّذي رفعهم إلى هذه المنزلة المنيعة كما في قوله: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلـهَ إِلّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلمِ قائِماً بِالْقِسطِ﴾[٣]

واعتراض آخر: ماذا تكون موقعيّة قوله: ﴿يَقُولُونَ آمَنّا بِهِ﴾ إذا اعتبرنا «الرّاسِخُونَ» عطفاً على «الله»؟

والجواب: أنّها جملة حاليّة، حالاً توضيحيّاً من الراسخين.

١ـ آل عمران: ٧.

٢ـ الشورى: ١١.

٣ـ آل عمران: ١٨.

من هم الراسخون في العلم؟

الراسخون في العلم هم العلماء الصادقون الّذين عرفوا قواعد الشريعة و موازين الشرع و مقاييسه الدقيقة، وإذا عرضت عليهم متشابهات الأُمور هم قادرون على استنباط حقائقها و على أوجه تخريجاتها الصحيحة. و من ثمّ فإنّهم يعلمون تأويل المتشابهات بفضل رسوخهم في فهم حقيقة الدين بعناية ربّ العالمين ﴿والّذين جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾،[١] ﴿وَ يَزِيْدُ اللهُ الّذينَ اهْتَدَوا هُدىً﴾،[٢] ﴿وَالّذِيْنَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ﴾،[٣] ﴿وَأنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلىٰ الطَّرِيْقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً﴾.[٤] أوَ ليس العلم بحقائق الشريعة البيضاء من الماء الغدق؟ إنّها شربة حياة العلم، يفيضها الله تعالىٰ على من يشاء من عباده المؤمنين، و يطلعهم على أسرار الملك والملكوت في العالمين.

و أوّل الراسخين في العلم هو رسول‌الله ﷺ ثمّ باب مدينة علمه أمير المؤمنين عليه السلام والأوصياء من بعده صلوات الله عليهم أجمعين. و هكذا استمّرت بين المسلمين ـ عبر العصور ـ رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فثبتوا واستقاموا على الطريقة فسقاهم ربّهم ماءً غدقاً. قال رسول‌الله ﷺ:

---

١ ـ العنكبوت: ٦٩.

٢ ـ مريم: ٧٦.

٣ ـ فصّلت: ٣٠.

٤ ـ الجنّ: ١٦.

«يحمل هذا الدين في كلّ قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين».[١] و قد جاء التعبير عن علماء أهل الكتاب الربانيّين بالراسخين في العلم ﴿لٰكِنِ الرّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالمُؤمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾.[٢] دليلاً على أنّ العلماء العاملين الّذين ساروا منهج الدين القويم، و كملت معرفتهم بحقائق الشريعة الطاهرة، هم راسخون في العلم و يعلمون التأويل. فعن ابن عباس تلميذ أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّا ممّن يعلم تأويله».[٣] و في وصيّة النّبي صلى الله عليه وآله: «فما اشتبه عليكم فاسألوا عنه أهل العلم يخبرونكم».[٤] فلولا أنّ في أُمّته علماء عارفين بتأويل المتشابهات لما أوصى صلى الله عليه وآله بمراجعتهم في حلّ متشابهات الأُمور.

الأسئلة

١. ما معنى المحكم و المتشابه لغةً؟
٢. عرّف المتشابه اصطلاحاً و اذكر أهمّ عوامل التشابه مع ذكر المثال.
٣. ما المراد من التفسير؟
٤. أُذكر عوامل الإبهام المحوجة إلى التفسير.

---

١ ـ سفينة البحار: ١/ ٥٥.
٢ ـ النساء: ١٦٢.
٣ ـ الدر المنثور للسيوطي: ٢/ ٧.
٤ ـ آلاء الرحمٰن للبلاغي: ج ١، ص ٢٥٨.

٥. هل في القرآن متشابه؟ لماذا؟

٦. هل المذاهب الجدليّة أثَّرَتْ في تشابه الآيات؟ مثِّل لذلك.

٧. ما الفرق بين التأويل والتفسير؟

٨. أُذكر المعاني الأربعة للتأويل.

٩. هل يعلم التأويل غيرُ الله؟

١٠. من هم الراسخون في العلم؟

صيانة القرآن من التحريف

التحريف في اللغة:

تحريف الشيء: إمالته والعدول به عن موضعه إلى جانب، مأخوذ من حَرْفِ الشيءِ بمعنىٰ طرفه و جانبه. قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَعْبُدَ اللهَ على حَرْفٍ فإنْ أصابَهُ خَيْرٌ اطْمأَنَّ بِهِ وَإنْ أصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلىٰ وَجْهِهِ﴾.[1] قال الزمخشري: أي على طرف من الدين لا في وسطه و قلبه. و هذا مَثَلٌ لكونهم على قلق و اضطراب في دينهم، لا على سكون و طمأنينة، كالذي يكون على طرف العسكر، فإن أحسّ بظفر و غنيمة قرّ واطمأنَّ، و إلّا فرّ و طار على وجهه.[2]

و تحريف الكلام: تفسيرة على غير وجهه، أي: تأويله بما لايكون ظاهراً فيه، تأويلاً من غير دليل. والتحريف بهٰذا المعنى إنّما هو تغيير في

١ـ الحج: ١١.

٢ـ الكشاف: ٢/ ١٤٦.

معنىٰ الكلم، كما قال تعالىٰ: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَواضِعِهِ﴾،[١] أي: يفسّرونها علىٰ غير وجهها بما لادلالة للكلام وضعاً فيه. و هذا تحريف معنوي لاغير. قال الطبرسي﵀ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَواضِعِهِ﴾: «أي: يفسّرونها على غير ما أُنزل و يغيّرون صفة النّبي ﷺ فيكون التحريف بأمرين، أحدهما: سوء التأويل، والآخر التغيير والتبديل، كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ الله وَ ما هُوَ مِنْ عِنْدِ الله﴾».[٢]

التحريف في الاصطلاح:

التحريف في الاصطلاح جاء على سبعة وجوه:

١ ـ **تحريف مدلول الكلام**: و هو تفسيره على غير وجهه بمعنىٰ تأويله بما لايكون اللفظ ظاهراً فيه بذاته لابحسب الوضع و لابحسب القرائن المعهودة و من ثمّ فهو تأويل باطل، المعبّر عنه بالتفسير بالرأي المنهيّ عنه في لسان الشريعة المقدسة. قال ﷺ: «من فسّر القرآن برأيه فليتبوّء مقعده من النار».[٣]

٢ ـ **تحريف موضعي**: بأن يكون ثبت الآية أو السورة على خلاف ترتيب نزولها، و هذا في الآيات قليل نادر، لكن السور كلّها جاء ثبتها في

---

١ ـ النساء: ٤٦، المائدة: ١٣.

٢ ـ آل عمران: ٧٨، مجمع البيان: ٢/ ١٧٣.

٣ ـ غوالي اللئالي: ٤/ ١٠٤، رقم ١٥٤.

المصحف على خلاف ترتيب النزول، كما تقدّم.

٣ ـ **تحريف قرائي**: بأن تقرأ الكلمة على خلاف قراءتها المعهودة لدىٰ جمهور المسلمين، و هذا كأكثر اجتهادات القرّاء في قراءاتهم المبتدعة لا عهد لها في الصدر الأوّل، الأمر الذي لا نجيزه بعد أن كان القرآن واحداً نزل من عند واحد كما في الحديث الشريف.[١] و قد ذكرنا ذلك في بحث القراءات.

٤ ـ **تحريف في لهجة التعبير**: كما في لهجات القبائل تختلف عند النطق بالحرف أو الكلمة في الحركات و في الأداء. الأمر الّذي يجوز، مادامت بُنية الكلمة الأصليّة محتفظة لايختلف معناها و قد نزّلنا حديث الأحرف السبعة ـ علىٰ فرض صحّة الإسناد ـ على إرادة اختلاف لهجات العرب في أداء الكلمات والحروف، بل و حتّىٰ إذا لم تكن اللهجة عربيّة، فإنّ الملائكة ترفعها عربيّة كما في الحديث.[٢] نعم لا يجوز إذا كان لحناً ـ أي: خطأً و مخالفاً لقواعد الإعراب ـ قال تعالىٰ: ﴿قرآناً عربياً غَيرَ ذى عِوَجٍ﴾،[٣] و قد أُمرنا بقراءة القرآن عربيّة صحيحة «تعلّموا القرآن بعربيّته».[٤] و هكذا إذا كان التحريف اللهجي مغيّراً لمعنى الكلمة فإنّه لا يجوز، و لاسيّما إذا كان عن عمدٍ و لغرض خبيث، كما كانت تفعله اليهود عند اللهج بلفظ «راعنا» فكانت تميل حركة العين إلى فوق لتصبح معنى الكلمة «شرّيرنا» حسبما

---

١ ـ الكافي (الأُصول): ٢/ ٦٢٧.

٢ ـ وسائل الشيعة: ٤/ ٨٦٦، رقم ٤.

٣ ـ الزمر: ٢٨.

٤ ـ وسائل الشيعة: ٤/ ٨٦٥، ب ٣٠، ح ١.

ذكره الحسين بن علي المغربي[١] و ذكره القرآن في سورة البقرة (آية ١٠٢) و في سورة النساء (آية ٤٦).

٥ ـ **تحريف بتبديل الكلم**: بأن تتبدّل الكلمة إلى غيرها مرادفة لها أو غير مرادفة. الأمر الذي كان يجوّزه ابن مسعود في المترادفات نظراً منه إلى حفظ المعنى المراد و أنّه لا بأس باختلاف اللفظ. و قد أسبقنا عدم جواز ذلك في نصّ الوحي، لأنّ الإعجاز قائم بلفظه كما هو قائم بمعناه.[٢]

٦ ـ **التحريف بالزيادة**: نسب إلى جماعة ـ كابن مسعود ـ أنّهم كانوا يزيدون في نصّ الوحي، لاعقيدة بأنّها من القرآن، بل لغرض إيضاح الآية ورفع الإبهام من لفظها. و هذا لا بأس به مع التزام الشرط وعدم الالتباس. وهكذا نجد زيادات تفسيريّة في المأثور عن الأئمّة الصادقين عليهم السلام.

و لم نجد من زعم زيادة في النصّ الموجود سوىٰ ما يحكىٰ عن العجاردة (أصحاب عبد الكريم بن عجرد من زعماء الخوارج) أنّهم أنكروا أن تكون سورة يوسف من القرآن، و كانوا يرون أنّها قصّة عشق لا يجوز أن تكون من الوحي.[٣] و لهم مقالات فاسدة غير ذلك.[٤] وسيأتي ردّ

---

١ ـ راجع: تفسير البلاغي (آلاء الرحمٰن): ٢/ ١٣٤.

٢ ـ راجع بحث القراءات.

٣ ـ الملل والنحل للشهرستاني: ١/ ١٢٨. لكنَّ أبا الحسن الأشعري لم يتحقق عنده صحّة هذه النسبة، قال «و حكي لنا عنهم ما لم نتحقّقه: أنّهم يزعمون أنّ سورة يوسف ليست من القرآن». راجع مقالات الإسلاميين: ١/ ١٧٨.

٤ ـ راجع المقالات: ج ١، ص ١٧٨.

مقالتهم. نعم كان ممّا اشتبه على ابن مسعود زعمه أنّ المعوّذتين تعويذان و ليستا من القرآن و كان يقول: «لا تخلطوا بالقرآن ما ليس منه»، و كان يحكّهما من المصحف.[١]

٧ ـ **التحريف بالنقص**: إمّا بقراءه النقص، كما أُثر عن ابن مسعود أنّه كان يقرأ: «والليلِ إذا يغشىٰ والنهارِ إذا تجلّىٰ والذكرِ والأُنثىٰ» باسقاط «ما خَلَقَ»،[٢] و عن الأعمش أنّه كان يقرأ: «حم سق» بإسقاط «ع» قيل: «و هكذا قرأ ابن عباس».[٣] أو بزعم أنّ في النصّ الحاضر سقطاً، كان من القرآن فأُسقط إمّا عن عمد أو عن نسيان و هذا إمّا في حرف واحد أو كلمة أو جملة كاملة أو آية أو سورة كما زعم. و كلّ ذلك ورد مأثوراً في أُمّهات الكتب الحديثيّة كالصحاح الستّة و غيرها. الأمر الذي ننكره أشدّ الإنكار، و هو الّذي وقع الكلام حوله في مسألة تحريف الكتاب. و لا مجال لتغيير العبارة والقول بأنّه من منسوخ التلاوة أو منسيّها ـ كما التزم به بعض أئمّة أهل السنّة ـ فإنّه من الالتواء في التعبير، و تغيير العنوان لا يغيّر الواقع المعنون.

و مجمل القول في ذلك: أنّ ما ورد بهٰذا الشأن من الروايات العاميّة الإسناد، لا تعدو كونها من صنع الزنادقة و الوضّاعين المعروفين بالكذب والاختلاق. أو أنّ لها تأويلاً صحيحاً لايمسّ جانب تحريف الكتاب. و إلّا

---

١ ـ فتح الباري بشرح البخاري: ٨/ ٥٧١.

٢ ـ صحيح البخاري: ٦/ ٢١١، و ٥/ ٣٥.

٣ ـ مجمع البيان: ٩/ ٢١.

فهي أوهام و خرافات لا اعتبار بشأنها أصلاً، والأكثر إنّما هو من هذا القبيل.

القرآن و لفظ التحريف:

لم يستعمل القرآن لفظ التحريف في غير معناه اللغوي، أي: التصرّف في معنىٰ الكلمة و تفسيرها على غير وجهها المعبّر عنه بسوء التأويل أو التفسير بالرأى. و هو تحريف معنويّ ليس سواه. و قد أسبقنا الكلام عن قوله تعالىٰ: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ﴾.[1] قوله ﴿عَنْ مَواضِعِهِ﴾أي بعد أن كان الكلام مستعملاً في معناه الحقيقي الظاهر فيه بنفسه أو المستعمل فيه بدلالة القرائن المعهودة، فجاء التحريف بعد ذلك خيانة في أمانة الأداء والبلاغ. و في قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ بِعْدِ مَواضِعِهِ﴾،[2] تصريح بهٰذا المعنى، حيث إنّ التحريف إزاحة للّفظ عن موضعه الذي هو معناه.

و في سورة البقرة: ﴿وَ قَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ﴾،[3] أي: جاء تحريف المعنىٰ إلى ما أرادوه بعد علمهم بالمعنىٰ الحقيقي المراد الذي كان على خلاف مصالحهم فيما زعموا. ومن ثمّ فهو من سوء التأويل كما عبّر عنه الطبرسي و من قبله الشيخ في التبيان. قال: «فالتحريف يكون بأمرين: بسوء التأويل و بالتغيير

١ـ النساء: ٤٦، المائدة: ١٣.

٢ـ المائدة: ٤١.

٣ـ البقرة: ٧٥.

والتبديل»،[١] أي: بتغيير لهجة الكلام بحيث يغيّر المعنىٰ بذلك، كما جاء في سورة آل عمران: ٧٨.

والخلاصة: كان تحريف العهدين الّذي أشار إليه القران إمّا بسوء التأويل ـ أي التصرف في تفسيرهما بغير الحقّ، من غير أن يمسّوا يداً إلى لفظ الكتاب ـ أو مع تغيير في لهجة التعبير عند النطق بالكتاب، كما قال تعالىٰ: ﴿وإنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُون ألْسِنَتَهم بِالْكِتابِ لِتَحسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَما هُوَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ الله وَ ما هُوَ مِنْ عِنْدِ الله وَيَقُولُونَ عَلىٰ الله الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ﴾.[٢] لأنّ اللفظ إذا لهج به على غير لهجته الأُولىٰ لم يكن نفسه وإنّما هو غيره، و إنّما كانوا يعمدون إلى ذلك ذريعة لكتمان الحقيقة و إخفاء البشائر بمقدم نبيّ الإسلام ﷺ.

أمّا التحريف بمعنىٰ الزيادة أو النقصان أو تبديل الكلم إلى كلمات غيرها ـ الّذي هو المعنى الاصطلاحي ـ فلم يعهد استعماله في القرآن، حسبما عرفت.

دلائل بطلان شبهة التحريف

١ ـ بديهة العقل: من بديهة العقل أنّ مثل القرآن الكريم يجب أن يسلم عن احتمال أيّ تغيير أو تبديل فيه، حيث إنّه كان الكتاب الذي وقع ـ من

---

١ ـ التبيان: ٣/ ٤٧٠.

٢ ـ آل عمران: ٧٨.

أوّل يومه ـ موضع عناية أُمّة كبيرة واعية، و لاعجب فإنّه المرجع الأوّل لجميع شؤونهم في الحياة الدينيّة والسياسيّة والاجتماعيّة، فكان أساس الدين و مبنى الشريعة و ركن الإسلام. و هو المنبع الأصل لأُمّهات مسائل فروع الدين و أُصوله. و من ثمّ كان الجميع في حراسته والمواظبة على سلامته و بقائه مع الخلود.

قال شيخ الفقهاء، كاشف الغطاء: «و ما ورد من أخبار النقيصة تمنع البديهة من العمل بظاهرها و لاسيّما ما فيه من نقص ثلث القرآن أو كثير منه. فإنّه لو كان ذلك لتواتر نقله، لتوفّر الدواعي عليه و لاتّخذه غير أهل الإسلام من أعظم المطاعن على الإسلام و أهله... كيف يكون ذلك و كانوا شديدي المحافظة على ضبط آياته و حروفه، و خصوصاً ما ورد أنّه صُرّح فيه بأسماء كثير من المنافقين؟ و كيف يمكن ذلك و كان من حكمة النبي ﷺ الستر عليهم و معاملتهم معاملة أهل الدين؟».[1] و أخيراً قال: «يالله العجب من قوم يزعمون سلامة الأحاديث و بقائها محفوظة، و هي دائرة على الألسن و منقولة في الكتب، في مدّة ألف و مائتي سنة، و أنّها لو حدث فيها نقص لظهر واستبان و شاع، لكنّهم يحكمون بنقص القرآن، و خفي ذلك في جميع الأزمان».[2]

٢ ـ ضرورة تواتر القرآن: من الدلائل ذوات الشأن النافية لشبهة

---

١ ـ كشف الغطاء: كتاب القرآن من كتاب الصلاة، المبحث السابع والثامن، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

٢ ـ عن كتابه «الحقّ المبين»: ١١.

التحريف هي مسألة «ضرورة كون القرآن متواتراً» في مجموعه و في أبعاضه، في سوره و آياته، حتّىٰ في جمله التركيبيّة و في كلماته و حروفه بل و حتىٰ في قراءته و هجائه على ما أسلفنا في بحث القراءات، و قلنا: «إنّ الصحيح من القراءات هي القراءة المشهورة الّتي عليها جمهور المسلمين و قد انطبقت على قراءة عاصم بروايه حفص».

فإنّ هذا ممّا يرفض احتمال التحريف، لإنّ ما قيل بسقوطه و أنّه كان قرآناً يتلىٰ إنّما نقل إلينا بخبر الواحد، و هو غير حجّة في هذا الباب، حتّىٰ لو فرض صحّة إسناده.

هٰكذا استدلّ العلامة الحلّي[١] و جماعة من المحقّقين كالسيد المجاهد محمد بن علي الطباطبائي[٢] والفقيه المحقّق المولىٰ أحمد الأردبيلي[٣] والمحقق المتتبّع السيد محمد جواد العاملي[٤] و غيرهم.

٣ ـ مسألة الإعجاز: ممّا يتنافىٰ مع احتمال التحريف في كتاب الله هي مسألة الإعجاز المتحدّىٰ به. و قد اعتبره العلماء من أكبر الدلائل على نفي التحريف. أمّا احتمال الزيادة ـ كما احتمله أصحاب ابن العجرد من الخوارج، قالوا بزيادة سورة يوسف في القرآن، لأنّها قصّة عشق و لايجوز

---

١ ـ راجع: البرهان للبروجردي: ١١١.

٢ ـ راجع: البرهان للبروجردي: ١٢٠ ـ ١٢١.

٣ ـ راجع: مجمع الفائدة: ج ٢، ص ٢١٨.

٤ ـ راجع: مفتاح الكرامة: ٢/ ٣٩٠.

أن تكون وحياً،[١] و كما زعمه ابن مسعود بشأن سورتي المعوّذتين[٢] ـ فهو احتمال باطل، إذ يستدعي ذلك أن يكون باستطاعة البشريّة أن تقوم بإنشاء سورة كاملة تماثل سور القران تماماً. و قد قال تعالىٰ: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ والجنُّ عَلىٰ أنْ يَأتُوا بِمِثلْ هٰذا القرآنِ لايَأتُونَ بِمِثْلِه وَ لَو كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾،[٣] ﴿أمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فأْتُوا بعشرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ﴾،[٤] ﴿أمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأتُوا بسورةٍ مِثْلِهِ﴾،[٥] ﴿و إنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ ممّا نَزَّلْنا عَلىٰ عَبْدِنا فَأتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾.[٦] فهٰذا التحدّي الصارخ يبطل دعوىٰ كلّ زياده في سور القرآن و آياته الكريمة.

و كذا احتمال التبديل، فإنّ المتبدَّل لايكون من كلامه تعالىٰ و إنّما هو من كلام مبدِّله والكلام يسند إلى قائله إذا كان مجموع الكلمات مستندة إليه لا البعض دون البعض. إذن فاحتمال التبديل و لو في بعض كلمات القرآن يبطل إسناد مجموع الكتاب إليه سبحانه وتعالىٰ. و من ذلك تعلم فساد ما قيل في قوله تعالىٰ: ﴿كُنْتُمْ خَيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ﴾[٧]: إنّها متبدّلة من

١ـ الملل والنحل للشهرستاني: ١/ ١٢٨.

٢ـ فتح الباري لابن حجر: ٨/ ٥٧١.

٣ـ الإسراء: ٨٨.

٤ـ هود: ١٣.

٥ـ يونس: ٣٨.

٦ـ البقرة: ٢٣.

٧ـ آل عمران: ١١٠.

«كُنْتُمْ خَيْرَ أَئِمَّةٍ»، كما زعمه الشيخ النوري والسيد الجزائري[١] و غيرهما. وزعموا في كثير من كلمات قرآنيّة مثل ذلك و قالوا: «و مثل هذا كثير».[٢] كلّ ذلك باطل لأنّه ورد بخبر واحد و هو غير حجّة في باب القطعيّات.

و هكذا التبديل الموضعي يخلّ بنظم الكلام المبتني على الإعجاز نظماً و أسلوباً. قالوا في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّه وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كتابُ مُوسَى إماماً وَرَحْمةً﴾[٣]: «إنّها متغيّرة من «و يتلوه شاهد منه إماماً و رحمة و من قبله كتاب موسىٰ» قالوا: «تقدّم حرف على حرف»، فذهب معنى الآية[٤] حسب زعمهم.

و مثله النقص بإسقاط كلمة أو كلمات ضمن جملة واحدة. إنّها إذا كانت منتظمة في أُسلوب بلاغي بديع، فإنّ حذف كلمات منها يؤدّي إلى إخلال في نظمها و يذهب بروعتها الأُولىٰ و لايدع مجالاً للتحدّي بها. الأمر الذي غفل عنه زاعمو التحريف. زعموا إسقاط اسم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من مواضع من القرآن،[٥] ذهولاً عن أنّه لو أثبتناه في تلك المواضع لذهب عنها تلك الرّوعة، في حين عدم الحاجة إلى ذكر الاسم، و إنّما هو بيان شأن النزول لا غير.

---

١ ـ منبع الحياة للجزائري: ٦٧.

٢ ـ راجع: فيما نسبوه إلى النعماني، بحار الأنوار: ٩٠/ ٢٦ ـ ٢٧ ط بيروت مؤسسة الوفاء.

٣ ـ هود: ١٧.

٤ ـ بحار الأنوار: ٩٠/ ٢٦ ـ ٢٧.

٥ ـ راجع: منبع الحياة للسيد نعمةالله الجزائري: ٦٧.

و أسخف مزعومة زعمها هولاء هي سقط أكثر من ثلث القرآن ـ أي مايزيد على ألفي آية ـ من خلال آية واحدة و هي قوله تعالىٰ: ﴿وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلّا تُقسِطُوا فِي اليَتامىٰ فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُباعَ﴾.[١] حيث إنّهم زعموا عدم تناسبها مع ذيلها.[٢]

٤ ـ آية الحفظ: قال تعالىٰ: ﴿إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾.[٣] هذه الآية الكريمة ضمنت بقاء القرآن و سلامته عن تطرّق الحدثان عبر الأجيال. و هو ضمان إلهي لايختلف و لايتخلّف وعداً صادقاً ﴿إِنَّ اللهَ لايُخْلِفُ المِيْعادَ﴾.[٤]

و هذا هو مقتضىٰ قاعدة اللطف: «يجب على الله تعالىٰ ـ وفق حكمته في التكليف ـ فعل مايوجب تقريب العباد إلى الطاعة و بعدهم عن المعصية». و لاشكّ أنّ القرآن هو عماد الإسلام و سنده الباقي مع بقاء الإسلام، و هو خاتمة الأديان السماويّة الباقية مع الخلود. الأمر الّذي يستدعي بقاء أساسه و دعامته قويمة مستحكمة و لا تنثلم مع عواصف أحداث الزمان. و أجدر به أن لايقع عرضة لتلاعب أهل البدع والأهواء، شأن كلّ سند وثيق يبقىٰ، ليكون حجّة ثابتة مع مرّ الأجيال. و هذا الضمان الإلهي هو أحد جوانب إعجاز هذا الكتاب، حيث بقاؤه سليماً على أيدي

---

١ ـ النساء: ٣.

٢ ـ منبع الحياة: ٦٦.

٣ ـ الحجر: ٩.

٤ ـ الرعد: ٣١.

الناس و بين أظهرهم، و ليس في السماء في البيت المعمور في حقائب مخبوءة وراء الستور. ليس هذا إعجازاً إنّما الإعجاز هو حفظه و حراسته في معرض عام و على ملأ الأشهاد.

فمن سفه القول ما يقوله أهل التحريف: «إنّه تعالىٰ يحفظ القرآن في المواضع الذي أنزله فيه، كما كان محفوظاً في المحلّ الأعلىٰ قبل نزوله. والقرآن إنّما نزل به جبرئيل على قلب سيّد المرسلين ليكون من المنذرين، فمحلّه الذي أنزله تعالىٰ فيه ووعد حفظه، هو قلبه الشريف، لا الصحف والدفاتر و لاغير صدره ﷺ من الضمائر».[1] و قد ذكر أهل التفسير ـ بشأن نزول الآية ـ أنّه ﷺ إنّما كان يخشىٰ تلاعب أهل الأهواء بالقرآن من بعده، كما فعلوا بكتب الأنبياء السالفين. فنزلت الآية تطمئنّه على حفظه و حراسته عن تناوش الأعداء خلوداً مع الأبد[2] و قرينة السياق أيضاً شاهدة على هذا المعنىٰ. مضافاً إلى أنّ حكمة التكليف تقضي أيضاً بهٰذا البقاء والسلامة الأبديّة. و نظير هذه الطمأنة كثير في آيات أُخرىٰ.[3]

إشكال: إنّ مدعي التحريف يدّعي وجود التحريف في نفس هذه الآية، لأنّها بعض القرآن فلايكون الاستدلال بها، فإنّه من الدور الباطل.

---

١ ـ راجع: فصل الخطاب للشيخ النوري: ٣٦٠.

٢ ـ و قد أشار إليه المحدث النوري في فصل الخطاب: ٣٦١.

٣ ـ منها: الآية ٩٤، ٩٥ من سورة الحجر، والآية ٦٧ من سورة المائدة و ٥٢ من سورة الحج و ١٨ من سورة الأنبياء و ١٦ ـ ١٩ من سورة القيامة و ٦ و ٧ من سورة الأعلىٰ.

جواب: أجاب سيّدنا الأُستاذ الإمام الخوئيﷺ بما حاصله: «إنّ هذه الشبهة إنّما ترد على من لم يعترف للعترة الطاهرة مقام ولا يتهم الكبرىٰ و أنّهم عِدل القرآن و قرناؤه، كما ورد في حديث الثقلين. إذ أنّهم عليهم السلام تمسّكوا بهٰذا الموجود من القرآن و قرّروا أصحابهم في التمسّك به والاستناد إليه، الأمر الّذي يكشف عن حجّيّته بالذات و وجوب التمسّك به بلاريب».[1]

قلت: «هؤلاء الفئات الشاذّة إنّما وضعوا اليد على مواضع التحريف ـ فيما زعموا ـ كآية الرجم و غيرها. أمّا الآيات المثبته في المصحف الشريف ـ على ما تعارف عليه المسلمون عبر القرون ـ فهم معترفون بصحتها وحياً سماويّاً. ليس فيها زيادة أو تبديل في نصّها».

٥ ـ نفي الباطل عنه: قال تعالىٰ: ﴿و إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ * لايَأْتِيْهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٌ﴾[2]. وعد تعالىٰ صيانته من الضياع وسلامته من حوادث الأزمان. قوله: ﴿لايَأْتِيْهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾، الباطل: الفاسد الضائع: أي: لايعرضه فساد أو نقض لا في حاضره و لا في مستقبل الأيّام. و ذلك لأنّه ﴿تنزيلٌ مِن﴾لدن ﴿حكيم﴾، و أنّ حكمته تعالىٰ لتبعث علىٰ ضمان حفظه و حراسته مع أبديّة الإسلام. ﴿حميدٍ﴾، من كان محموداً علىٰ فعاله فلايخلف الميعاد. و قد اعترف الخصم بأنّ مطلق التغيير في القرآن يعدّ باطلاً و تنافياً مع ظاهر الآية الكريمة. سوىٰ أنّ المقصود غير هذا المعنىٰ. قال: «لأن المقصود هو

---

١ ـ البيان: ٢٢٨.

٢ ـ فصّلت: ٤١، ٤٢.

البطلان الحاصل من تناقض أحكامه و تكاذب أخباره».[١]

قلت: «لعلّه لم يتنبّه لموضع قوله تعالىٰ: ﴿لا يَأْتِيْهِ الباطِلُ﴾. والباطل الّذي يمكن إتيانه للكتاب هو تناول يد المحرّفين ﴿الّذيْنَ جَعَلُوا القُرْآنَ عِضِيْنَ﴾.[٢] أمّا التناقض والتكاذب في أحكامه و إخباراته فهو من الباطل المنبعث من الداخل، و قد نفاه تعالىٰ أيضاً بقوله: ﴿وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيْهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾.[٣] و من ثمّ أطبق المفسّرون على أنّ آية نفي الباطل هي من أصرح الآيات دلالة على نفي احتمال التحريف من الكتاب فلا تناله يد مغيّر أبداً.

٦ ـ العرض على كتاب الله: قال الصادق عليه السلام: «إنّ على كلّ حقيقة وعلى كلّ صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه».[٤] الأمر الذي يتنافىٰ مع احتمال التحريف في كتاب الله، و ذلك من جهتين:

الجهة الأُولىٰ: أنّ المعروض عليه يجب أن يكون مقطوعاً به، لأنّه المقياس الفارق بين الحقّ والباطل و لا موضع للشكّ في نفس المقياس. إذن فلو عرضت روايات التحريف على نفس ما قيل بسقوطه لتكون موافقة له، فهذا عرض على المقياس المشكوك فيه، و هو دور باطل. و إن عرضت

---

١ ـ فصل الخطاب: ٣٦١.

٢ ـ الحجر: ٩١.

٣ ـ النساء: ٨٢.

٤ ـ الكافي: ١/ ٦٩، باب الأخذ بالسنة و شواهد الكتاب.

على غيره فهي تخالفه، قال تعالىٰ: ﴿لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ﴾[١] و ﴿إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وَإِنّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾.[٢]

الجهة الثانية: إنّ العرض لابدّ أن يكون على هذا الموجود المتواتر لدىٰ عامّة المسلمين لما ذكرناه ـ في الجهة الأولىٰ ـ من أنّ المقياس لابدّ أن يكون متواتراً مقطوعاً به. و روايات التحريف إذا عرضت على هذا الموجود بأيدينا كانت مخالفة له، لأنّها تنفي سلامة هذا الموجود و تدلّ علىٰ أنّه ليس ذلك الكتاب النازل على رسول‌الله ﷺ و هذا تكذيب صريح للكتاب ومخالفة مع القرآن. هكذا استدّل المحقق الثاني (الكَرَكي) (م ٩٤٠)[٣] والسيد محمد مهدي الطباطبائي (بحر العلوم) (م ١١٥٥).[٤]

لكن زعم المحدّث النوري أن لا منافاة بين أخبار العرض و وقوع التحريف في القرآن. فإنّ الأمر بالعرض على كتاب الله صدر من رسول‌الله ﷺ حال حياته أمّا وقوع السقط والتبديل فإنّما حصل بعد وفاته.[٥]

و هذا كلام غريب، إذ أحاديث العرض لايختصّ صدورها عن رسول الله ﷺ بل نطق بها ـ دستوراً عامّاً ـ الأئمة المعصومون عليهم السلام بعده أيضاً.

---

١ ـ فصّلت: ٤٢.

٢ ـ الحجر: ٩.

٣ ـ بنقل السيد شارح الوافيه، أُنظر: البرهان للبروجردي: ص ١١٦ ـ ١١٧.

٤ ـ بنقل البروجردي في البرهان: ١١٨ ـ ١٢٠.

٥ ـ راجع: فصل الخطاب: ٣٦٢ و ٣٦٣.

ثمّ إنّ النبي ﷺ قال ذلك خشية وفور الكذّابة بعده، فبيّن للأُمّة طول الدهر معياراً يقيسون عليه السليم من السقيم من أحاديثه المنسوبة إليه، و ليس علاجاً موقّتاً خاصّاً بحال حياته صلوات الله عليه.

٧ ـ **نصوص أهل البيت عليهم السلام**: لدينا كثير من أحاديث مأثورة عن أهل البيت عليهم السلام تنصّ على صيانة القرآن من التحريف ـ إمّا تصريحاً أو تلويحاً ـ و أنّه مصون عن التغيير نصّاً، لم ينله مسّ سوء أصلاً. و إنْ نالته الأيدي الأثيمة تأويلاً و تفسيراً بغير حق.

و إليك بعضها:

١ ـ روي عن الإمام الباقر عليه السلام: «و كان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه و حرّفوا حدوده».[١] والمراد من «تحريف الحدود» هو تضييعها كما ورد في الحديث: «و رجل قرأ القرآن فحفظ حروفه و ضيّع حدوده»[٢]. و عليه فالمراد من «إقامة الحروف» هو حفظها عن التغيير و التبديل، كما في هذا الحديث أيضاً.

٢ ـ روى أبو بصير قال: سألت الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالىٰ: ﴿أَطِيْعُوا اللهَ و أَطِيْعُوا الرَّسُولَ و أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾،[٣] و ما يقوله الناس: «ما باله لم يسمّ عليّاً و أهل بيته؟» قال عليه السلام: «إنّ رسول الله ﷺ نزلت عليه الصلاة و لم يسمّ لهم ثلاثاً و لا أربعاً حتّىٰ كان رسول الله هو الذي فسّر لهم

---

١ ـ روضة الكافي: ٨/ ٥٣، رقم ١٦. و سنده صحيح.

٢ ـ أُصول الكافي: ٢/ ٦٢٧، رقم ١.

٣ ـ النساء: ٥٩.

ذلك».[١] فقد قرّر عليه السلام أنّه لم يأت ذكرهم في الكتاب نصّاً، و إن كانوا مقصودين بالذات من عمومات واردة في القرآن كثيراً.

٣ ـ روىٰ عمّار الساباطي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال تعالىٰ بشان عليّ عليه السلام: ﴿أَمَّن هُوَ قانِتٌ آناءَ اللّيلِ ساجِداً وَ قائماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوي الّذِيْنَ يَعْلَمُونَ﴾ أنّ محمداً رسول الله ﴿والّذينَ لايَعْلَمُونَ﴾ أنّ محمّداً رسول الله... و يزعمون أنّه ساحرٌ كذّاب ﴿إنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُو الْألبابِ﴾».[٢] ثمّ قال عليه السلام: «هٰذا تأويله يا عمّار».[٣] و هذا الحديث قد أوضح أنّ الزيادات التي كانت قد تذكر خلال قراءات الأئمّة عليهم السلام إنّما هي زيادات تفسيريّة لغرض تأويل الآية إلى أوجه دلالتها و ليس كما زعمه أهل التحريف.

٤ ـ زاد الصدوق روايات دلّت ـ دلالة التزاميّة ـ على كمال سور القرآن من غير نقص فيها، و كذا على كمال القرآن من غير نقص فيه، مثل ما دلّ على ثواب قراءة كلّ سورة، والنهي عن القِران بين السورتين، و ثواب ختم القرآن، و النهي عن الختم بأقلّ من ثلاثة أيّام. فلو كان في السور نقص لما أمكن قراءتها أو القِران بين السورتين، إذ على ذلك الفرض كان المقروء بعض السورة، و كان القِران بين أبعاض السورتين، والثواب على ختم القرآن دليل على إمكان ختمه أى: تلاوة آياته و سوره أجمع، و هكذا.

---

١ ـ أُصول الكافي: ١/ ٢٨٦.

٢ ـ الزمر: ٩.

٣ ـ الكافي: ١/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣، رقم ٩١.

الأسئلة

١. ما معنى التحريف لغة؟
٢. أُذكر معاني التعريف اصطلاحاً.
٣. ما المراد من التحريف بمدلول الكلام؟
٤. ما هو التحريف الموضعي؟
٥. ما المراد من التحريف القرائي؟
٦. ما هو التحريف في لهجة التعبير؟
٧. ما المراد من التحريف بتبديل الكلم؟
٨. ما هو التحريف بالزيادة؟
٩. ما المراد من التحريف بالنقيصة؟
١٠. في أيّ معنىً استعمل التحريف في القرآن؟
١١. ما هو دليل العقل على عدم التحريف في القرآن؟
١٢. كيف تدلّ ضرورة تواتر القرآن على عدم تحريفه؟
١٣. أُذكر علاقة مسألة الإعجاز بعدم التحريف.
١٤. كيف تدلّ آية الحفظ على عدم التحريف؟
١٥. ما الجواب على من يدّعي وجود التحريف في نفس آية الحفظ؟
١٦. كيف تدلّ آية نفي الباطل على عدم التحريف؟
١٧. كيف تدلّ مسألة العرض على كتاب الله على عدم التحريف؟

الإعجاز القرآني

معنى الإعجاز:

الإعجاز: مصدر مزيد فيه من «عجز» إذا لم يستطع أمراً، ضدّ «قدر» إذا تمكّن منه. يقال: «أعجزه الأمر»، إذا حاول القيام به فلم تسعه قدرته و «أعجزتُ فلاناً»، إذا وجدتَه عاجزاً أو جعلته عاجزاً.

والمعجزة ـ في مصطلحهم ـ تطلق على كلّ أمرٍ خارق للعادة، إذا قرن بالتحدّي و سلم عن المعارضة، يظهره الله على يد أنبيائه ليكون دليلاً على صدق رسالتهم.

و هي تتنوّع حسب تنوّع الأُمم المرسل إليهم، فتتناسب مع مستوىٰ رقيّهم في مدارج الكمال، فمن غليظ شديد إلى رقيق مرهف، ومن قريب مشهود إلى دقيق بعيد الآفاق. و هكذا كلّما تقادمت الأُمم في الثقافة والحضارة، فإنّ المعاجز المعروضة عليهم من قِبَل الأنبياء عليهم السلام ترقّ و تلطّف، و كانت آخر المعاجز رقّة و لطفاً هي أرقاها نمطاً و أعلاها أُسلوبا، و هي معجزة الإسلام الخالدة، عرضت على البشريّة جمعاء مع الأبد، مهما ارتقت

و تصاعدت في آفاق الكمال، الأمر الّذي يتناسب مع خلود شريعة الإسلام.

ثمّ إنّ المعجزة ضرورة دفاعيّة لا تبليغيّة، فإنّ الأنبياء لم يبدأوا رسالاتهم بالمعجزة، بل إذا واجهوا المنكرين و شبهاتهم أتوا بها، لأنّ دعوة الأنبياء مطابقة للفطرة، موافقة للعقل السليم، ﴿وَ بِالحَقِّ أَنْزَلْناه و بِالحَقِّ نَزَلَ﴾،[١] و لذا صرّح القرآن بأنّ العلماء يقبلون دعوة الحقّ بلا تأمّل، ﴿وَ إذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إلى الرَّسُولِ تَرىٰ أعْيُنَهم تَفِيضُ مِنَ الدَّمعِ مِمّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ﴾،[٢] بخلاف أهل العناد، فإنّهم يجحدونها، (وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أنْفُسُهم ظُلماً و عُلُوّاً﴾.[٣]

و لقد صعب على العرب ـ يومذاك و هم على البداوة الأُولىٰ ـ تحمّل القرآن، فلم يطيقوه. و من ثمّ تمنّوا لو يُبدَّل إلى قرآن غير هٰذا، و معجزة أُخرىٰ لا تكون من قبيل الكلام: ﴿قالَ الّذِينَ لايَرْجُونَ لِقاءَنا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذا أوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إنْ أتَّبِعُ إلّا ما يوحىٰ إلَيَّ﴾.[٤] إنّها لم تكن معجزة للعرب فقط، و إنّما هي معجزة للبشريّة عبر الخلود، لكن أنّى لأُمّة جهلاء أن تلمس تلك الحقيقة و أن تدرك تلك الواقعيّة سوىٰ أنّها ﴿قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لكَ حَتّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الأَرضِ يَنْبُوعاً أوْ

١ـ الإسراء: ١٠٥.

٢ـ المائدة: ٨٣.

٣ـ النمل: ١٤.

٤ـ يونس: ١٥.

تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيْلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهارَ خِلالَها تَـفجِيْراً أَوْ تُسْـقِطَ السَّماءَ كما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أو تَأتِيَ باللهِ والملائكةِ قَبِيْلاً أو يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مَنْ زُخرُفٍ أَوْ تَرْقىٰ فِي السّماءِ وَلَنْ نُؤمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ﴾.[١] و قد عجب النبي ﷺ من مقترحهم ذلك التـافه السـاقط، ممّـا يتناسب مع مستواهم الجاهلي و من ثمّ رفض اقتراحهم ذلك و قال: ﴿قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إلّا بَشَراً رَسُولاً﴾.[٢] أي: ليس هذا من شأنكم و إنّما هي حكمة بالغة يعلمها الحكيم الخبير.

قال الراغب الاصفهاني: «المعجزات التي أتىٰ بها الأنبياء عليهم السلام ضربان: حسّي وعقلي. فالحسي: مايدرك بالبصر، كناقة صالح، و طوفان نوح، و نار إبراهيم، و عصا موسىٰ عليه السلام. والعقلي: مايدرك بالبصيرة، كالإخبار عن الغيب تعريضاً و تصريحاً، والإتيان بحقائق العلوم التي حصلت عن غـير تعلّم. فأمّا الحسي: فيشترك في إدراكـه العـامّة والخـاصّة. وأمّـا العـقلي: فيختصّ بإدراكه كملة الخواصّ من ذوي العقول الراجحة، والأفهام الثاقبة والرَّوِيّة المتناهية، الّذين يغنيهم إدراك الحقّ. و جعل تعالىٰ أكثر معجزات بني إسرائيل حسيّاً لبلادتهم و قلّة بصيرتهم، و أكثر معجزات هٰذه الأُمّـة عقليّاً لذكائهم وكمال أفهامهم الّتي صاروا بها كـالأنبياء. و لذلك قـال عليه السلام: «كادت أُمّتي تكون أنبياء».[٣] و كأنّ هذه الشريعة لمّا كانت باقية علىٰ وجه

١ـ الإسراء: ٩٠ـ٩٣.

٢ـ الإسراء: ٩٣.

٣ـ مسند أحمد: ١/ ٢٩٦.

الدهر غير معرّضة للنسخ، و كانت العقليّات باقية، جعل أكثر معجزاتها مثلها باقية...».[١]

و العرب الجاهليّة الأُولىٰ كانت تدرك هذا الإعجاز البياني بذوقها الفطري السليم بسهولة، إذ كان القرآن نزل بلغتهم و على أساليب كلامهم سوى كونه في مرتبة عليا و درجة أرقىٰ، فكانوا يدركونه فهماً و لا يكاد يأتون بمثله أداء و تعبيراً.

كان عصر نزول القرآن أزهىٰ عصور البيان العربي. كانت لهم أندية و أسواق يجتمع إليها فصحاؤهم و يعرضون فيها أنْفَسَ بضائعهم من الشعر و البيان. فإذا ظهرت فيهم الدعوة و نزل القرآن، تعطّلت الأسواق و خلت الديار إلّا من صوت القرآن، و لم يقدروا على مجاراته، ففضّلوا الفرار على القرار. و لم يكن العرب يومذاك أهل كسل و ملل في الكلام و الخصام، بل كانوا أهل لدد وجدل، كما وصفهم الله تعالى ﴿وَ تُنْذِرَ بِه قَوماً لُدّاً﴾،[٢] و ﴿ما ضَرَبُوه لك إلّا جَدَلاً بَل هُم قَومٌ خَصِمُونَ﴾،[٣] فلو كانت فيهم قدرة على المعارضة، لما صمتوا على ذلّ العار، و لما لجأوا إلى الأسنّة و السيوف.

هذا الوليد بن المغيرة المخزومي ـ كبير قريش و رائدهم و قائدهم ـ استأمروه بشأن هذا الكلام الّذي جاء به نبيّ الإسلام ﷺ، فلم يستطع سوى الاعتراف بأنّه فوق مقدور البشر، قال: «والله إنّ لِقوله الّذي يقول

---

١ ـ عن مقدّمته على التفسير: ١٠٢ ـ ١٠٤.

٢ ـ مريم: ٩٧.

٣ ـ الزخرف: ٥٨.

لحلاوةً و إنّ عليه لطلاوةً و إنّه لمثمرٌ أعلاه مغدقٌ أسفلُه و إنّه ليعلو وما يعلى».[١]

لا يقال: «إنّه عورض و لم ينقل». لأنّا نقول: النفوس مهتزّة لنقل ما دقّ وجلّ. و قد رأينا كتباً كثيرة صنّفت في الطعن على الإسلام قد نقلت و تدوولت. فلمّا رأيناهم يقولون: ﴿لاتَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرآنِ وَ الْغَوا فِيْهِ﴾،[٢] و ﴿لَوْ نَشاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هٰذَا﴾،[٣] و ﴿أساطِيرُ الأَوّلِيْنَ﴾.[٤] و ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾،[٥] و ﴿إئتِ بقرآنٍ غيرِ هٰذا أو بَدِّلْهُ﴾،[٦] ـ كلّ ذلك عجزاً عن الإتيان بمثله ـ علمنا قصورهم عنه.

و يمتاز القرآن على سائر المعاجز بأنّه يضمّ إلى جانب كونه معجزاً جانب كونه كتاب تشريع، فقد قُرن التشريع بإعجاز و وحّد بينهما، فكانت دعوة يرافقها شهادة من ذاتها، دلّ على ذاته بذاته.

التحدّي و مراحله:

لقد تحدّىٰ القرآن عامّة العرب، فحاولوا معارضته و لكن لا بالكلام، لعجزهم عنه، بل بمقارعة السيوف و بذل الأموال والنفوس، دليلاً على

---

١ ـ مستدرك الحاكم ٢/ ٥٠.

٢ ـ فصلت: ٢٦.

٣ ـ الأنفال: ٣١.

٤ ـ النحل: ٢٤.

٥ ـ الفرقان: ٣٢.

٦ ـ يونس: ١٥.

فشلهم عن مقابلته بالبيان. و ربّما كانوا ـ في بدء الأمر ـ استقلّوا شأنه، حيث قالوا: ﴿لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هٰذا إِنْ هٰذا إِلّا أَساطِيرُ الأَوَّلِيْنَ﴾،[١] و ﴿إِنْ هذا إِلّا قولُ البشرِ﴾،[٢] و ﴿إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾،[٣] و ﴿ما أَنْزَلَ اللهُ عَلىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾،[٤] إلى أمثالها من تعابير تكشف عن سخف أوهامهم. لكن سرعان ما تراجعت العرب إلى أعقابها فانقلبوا صاغرين، و قد ملكتهم روعة هذا الكلام و طغت عليهم سطوته، متهكّماً بموقفهم هذا و متحدّياً في مراحل:

١ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لايؤمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيْثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِيْنَ﴾.[٥]

٢ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرٰاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ * فإِنْ لَمْ يَسْتَجِيْبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ﴾.[٦]

٣ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرٰاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِيْنَ * بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيْطُوا بِعِلْمِهِ وَ لمّا يَأْتِهِمْ تأوِيْلُهُ كَذٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.[٧]

١ـ الأنفال: ٣١.

٢ـ المدّثّر: ٢٥.

٣ـ النّحل: ١٠٣.

٤ـ الأنعام: ٩١.

٥ـ الطور: ٣٣ـ ٣٤.

٦ـ هود: ١٣ـ ١٤.

٧ـ يونس: ٣٨ـ ٣٩.

٤ـ ﴿وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمّا نَزَّلْنا عَلىٰ عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُم مِنْ دونِ اللهِ إِنْ كُنْتُم صادِقينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النّارَ الّتي وَقُودُها النّاسُ وَ الحِجارَةُ أُعِدَّتْ للكافِرينَ﴾.[١]

٥ـ ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالجِنُّ عَلىٰ أَنْ يأتُوا بِمِثْلِ هٰذا الْقُرآنِ لايَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾.[٢]

و هل وقع التحدّي بجميع وجوه الإعجاز أم كان يخصّ جانب فصاحته و بلاغته؟

لعلّه يختلف حسب اختلاف الخطاب، فحيث كان التحدّي متوجهاً إلى العرب خاصّة ـ و لا سيّما ذلك العهد الّذي كانت مهنة العرب فيه خاصّة بجانب البيان و طلاقة اللسان ـ كان التحدّي حينذاك أيضاً خاصّاً بهٰذا الجانب. أمّا بعد أن توجّه النداء العامّ إلى كافّة البشرية، فإنّه لا بدّ أن يكون في القرآن شيء هو الّذي تحدّي به على وجه العموم. و من ثمّ كان التحدّي بمجموع وجوه الإعجاز من حيث المجموع، بحسب اختلاف الاستعدادات و القابليات. و القرآن معجزة الإسلام لجميع الأدوار و عامّة الأجيال و لمختلف طبقات الناس، في الفنون و المعارف و العلوم و الثقافات.

شمول التحدّي: تحدّي القرآن يشمل كلّ الأمم و كلّ أدوار التاريخ، سواء العرب و غيرهم، و سواء من كان في عهد الرسالة أم في عهود

---

١ ـ البقرة: ٢٣و ٢٤.

٢ ـ الإسراء: ٨٨.

متأخّرة حتّى الأبد. التحدّي لم يكن في جانب ألفاظ القرآن فقط ليخصّ لغة العرب، و إنّما هو بمجموعته من كيفيّة الأداء و البيان و المحتوىٰ جميعاً. كما أنّه لم يخصّ جانب فصاحته فحسب، ليكون مقصوراً على العهد الأوّل، حيث العرب في ازدهار الفصاحة والأدب. على أنّ الفصاحة والبلاغة لم تختصّ بلغة دون أُخرىٰ و لا بأُمّة دون غيرها.

لكن هناك من حاول اختصاص التحدّي بالعهد الأوّل و إن كان الإعجاز باقياً مع الخلود، زعماً بأنّ عجز ذلك الدور يكفي دليلاً على كونه معجزاً أبداً. هكذا زعمت الكاتبة بنت الشاطي، قالت: «مناط التحدّي هو عجز بلغاء العرب في عصر المبعث، و أمّا حجّة إعجازه فلا تخصّ عصراً دون عصر و تعمّ العرب والعجم، و كان عجز البلغاء من العصر الأوّل و هم أهل الفصاحة برهاناً فاصلاً في قضيّة التحدّي».[1]

قلت: «لعلّها خشيت أن لو قلنا بأنّ التحدّي قائم و لا يزال، ينبري نائرة الكفر و الإلحاد، فيأتي بحديث مثله، و بذلك ينقض أكبر دعامة من دعائم الإسلام. لكنّها فلتطمئنّ أنّ هذا لم يقع و لن يكون، لأنّ القرآن وضع على أُسلوب لا يدانيه كلام بشر البتّة و لن يتمكّن أحد أن يجاريه لا تعبيراً و أداءً و لا سبكاً و أُسلوباً، مادام الإعجاز قائماً بمجموعة اللفظ والمعنىٰ، فأيّ متكلّم أو ناطق يمكنه الإتيان بهكذا مطالب رفيعة، لم تسبق لها سابقة في البشريّة و في هكذا قالب جميل، إلّا أن يفضح نفسه؟ و في التاريخ عِبَرٌ

---

١ ـ الإعجاز البياني: ص ٦٥ ـ ٦٨.

تؤثر عن أُناس حاولوا معارضة القرآن، لكنّهم أتوا بكلام لا يشبه القرآن ولا يشبه كلام أنفسهم، بل نزلوا إلى ضرب من السخف، فمن حدّثته نفسه أن يعيد هذه التجربة، فلينظر في تلك العبر، و من لم يستح فليصنع ما شاء».

قال الدكتور عبدالله درّاز: «من كانت عنده شبهة، زاعماً أنّ في الناس من يقدر على الإتيان بمثله، فليرجع إلى أُدباء عصره، وليسألهم: هل يقدر أحد منهم على أن يأتي بمثله؟ فإن قالوا: «نعم، لو نشاء لقلنا مثل هذا»، فليقل لهم: «هاتوا برهانكم». و إن قالوا: «لا طاقة لنا به». فليقل لهم: «أيّ شيء أكبر شهادة على الإعجاز من الشهادة على العجز». ثمّ ليرجع إلى التاريخ فليسأله ما بال القرون الأُولى؟ ينبئك التاريخ أنّ أحداً لم يرفع رأسه أمام القرآن الكريم، و أنّ بضعة النفر الّذين انغضّوا رؤوسهم إليه، باؤوا بالخزي والهوان، و سحب الدهر على آثارهم ذيل النسيان».[1]

إشكال: إنّ صناعة البيان ليست في الناس بدرجة واحدة، و من ثمّ يختلف الناس في طريق التعبير و الأداء، و لا يمكن أن يتشابه اثنان في منطقهما و تعبيرهما، إلّا إذا كان عن تقليد. فكيف جاز تحدّي الناس لو يأتوا بحديث في مثل القرآن و هم عاجزون أن يأتوا بمثل كلام بعضهم؟

جواب: غير خفي أنّ لشرف الكلام و ضِعَتِه مقاييس، بها يعرف ارتفاع شأن الكلام و انحطاطه و قد فصّلها علماء البيان، و بها تتفاوت درجات

---

١ ـ النبأ العظيم: ٧٥.

الكلام و يقع بها التّفاضل بين أنحائه من رفيع أو وضيع. و لا يطالب القرآن أن يأتوا كلاماً بمثل صورته الكلاميّة ـ كما حسبه مسيلمة الكذّاب و من حذا حذوه من أغبياء القوم[1] ـ بل يطلب كلاماً ـ أيّاً كان نمطه و أُسلوبه ـ بحيث إذا قيس مع القرآن بمقياس الفضيلة البيانيّة حاذاه أو قاربه، كما يقاس كلمات البلغاء بعضهم مع بعض.

أبعاد إعجاز القرآن

لإعجاز القرآن أبعاد ثلاثة: البياني و العلمي و التشريعي.

١ـ الإعجاز البياني:

فصاحته بالغة و بلاغته فائقة. تعابيره دقيقة. كلماته منظّمة على أنظمة صوتيّة دقيقة، متناسبات الأجراس، متناسقات التواقيع، في تقاسيم و تراكيب سهلة سلسة، عذبة سائغة، ذات رنّة و جذبة شعريّة و استهواء سحري غريب. قال أرباب الأدب: «لو انتزعت منه لفظة ثمّ أُدير بها لغة العرب كلّها على أن يوجد لها نظير في موضعها الخاصّ، لم توجد البتّة».

---

١ ـ كان يقول مسيلمة الكذّاب: «الفيل ما الفيل؟ و ما أدراك ما الفيل؟ له ذنب وبيل و خرطوم طويل...». وكان يقول: «و المبذّرات زرعاً و الحاصدات حصداً و الذاريات قمحاً و الطاحنات طحناً و الخابزات خبزاً و الثاردات ثرداً و اللاقمات لقماً إهالة و سمناً لقد فضّلتم على أهل الوبر و ما سبقكم أهل المدر ريفكم فامنعوه و المعتر فآووه و الباغي فناوؤه». تاريخ الطبري: ٢/ ٥٠٨ ـ ٥٠٤.

من دقيق تعبيره أنّه حينما يذكر السرقة يورد السارق مقدّماً على السارقة، ﴿السّارقُ وَ السّارِقةُ فَاقْطَعُوا أيْدِيَهما﴾،[١] أمّا في الزّنا فيذكر الزّانية مقدّمة على الزاني، ﴿الزّانيةُ وَ الزّانِي فَاجْلِدُوا كلَّ واحدٍ منهما مأةَ جَلْدَةٍ﴾.[٢] و الحكمة واضحة، فالمرأة في الزنا هي البادئة و هي الّتي تدعو الرجل بزينتها و تبرّجها، أمّا في السّرقة فهي أقلّ جرأة من الرّجل.

و من تناسق نظمه و تناسب نغمه، فحينما نصغي إلى ما يقوله زكريّا لربّه ﴿رَبِّ إنّي وَهَنَ العَظْمُ مِنّي و اشْتَعَلَ الرأسُ شَيْباً وَ لَمْ أكُنْ بِدُعائك رَبِّ شَقِيّاً﴾،[٣] أو نستمع إلى الجملة الّتي تتحدّث عن خشوع الرسل: ﴿إذا تُتْلى عَلَيهم آياتُ الرّحمٰنِ خَرُّوا سُجَّداً و بُكِيّاً﴾،[٤] أو النغمة الرهيبة الّتي تصف اللقاء بالله يوم القيامة: ﴿وَ عَنَتِ الوُجوهُ لِلحَيِّ القَيُّومِ و قَد خابَ مَن حَمَلَ ظُلماً﴾،[٥] فإنّ عذوبتها تملك شغاف القلب، أمّا إذا تحوّل القرآن إلى حديث المجرمين و ما أُنزل بهم من عذاب، تحوّل النغمة إلى أصوات تصكّ الأذن: ﴿إنّا أرْسَلْنا عَليهم رِيحاً صَرْصَراً فِي يَومِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ الناسُ كأنّهم أعجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾،[٦] مع الهول و الشؤم ﴿و أنْذِرْهُم يومَ الآزِفَةِ إذ القُلُوبُ

---

١ ـ المائدة: ٣٨.

٢ ـ النور: ٢.

٣ ـ مريم: ٤.

٤ ـ مريم: ٥٨.

٥ ـ طه: ١١١.

٦ ـ القمر: ١٩ و ٢٠.

لَدَى الحَناجِرِ كاظِمِينَ ما لِلظّالِمِينَ مِن حَمِيمٍ و لا شَفِيعٍ يُطاعُ﴾.[١]

و من تجسيد معانيه في أجراس حروفه، فعندما تستمع إلى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ في هذه الحياةِ الدّنيا كَمَثَلِ رِيحٍ فيها صِرٌّ أصابَتْ حَرْثَ قَومٍ ظَلَمُوا أنْفُسَهم فأهْلَكَتْهُ﴾،[٢] كأنّك تحسّ بسمعك صوت هذه الريح العاتية، و لها صرير و صراخ تدمّر كلّ شيء، فتصوّر وقع عذاب شديد ألمّ بقوم ظالمين.

و من تناسب فواصل الآيات قوله تعالى: ﴿قُلْ أرَأيْتُم إنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيكم الليلَ سَرْمَداً إلى يومِ القيامةِ مَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يَأتِيكُم بضِياءٍ أ فلا تَسْمَعُونَ* قُلْ أرَأيْتُم إنْ جَعَلَ اللهُ عليكم النّهارَ سَرْمَداً إلى يومِ القيامةِ مَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يَأتِيكُم بِلَيلٍ تُسْكِنُونَ فيه أ فلا تُبْصِرُونَ﴾.[٣] ختمت الآية الأُولى بقوله: ﴿أ فلا تَسْمَعُونَ﴾، لأنّه المناسب لذكر الليل السرمد و هي الظلمة المطبقة لاموضع فيها لحسّ البصر، سوى حسّ السمع يسمع حسيسها، وأمّا الآية الثانية فكان الكلام فيها عن النهار السرمد، فناسبه الإبصار.

و من روعة استعارته، قوله تعالى ـ حكاية عن زكريّا ـ: ﴿رَبِّ إنّي وَهَنَ العَظْمُ مِنّي و اشْتَعَلَ الرّأسُ شَيْباً﴾.[٤] جاءت التكنية عن حلول مشيب عارض و هرم بالغ بتعبيرين هما من أرقّ التعابير و أدقّها في هذا

---

١ ـ غافر: ١٨.

٢ ـ آل عمران: ١١٧.

٣ ـ القصص: ٧١و٧٢.

٤ ـ مريم: ٤.

المجال: كنّى عن الشيب البالغ بوهن العظم و هو يلازم ضعف الشيب، فذكر العلّة الباطنة دليل على المعلول الظاهر؛ و عن هرمه و كبر سنّه بتجلّل المشيب رأسه أجمع، لكنّه استعار لتهلّل البياض المتجلّل به شيب الرأس وهيجَ النار، و هي استعارة غريبة لم يسبق لها نظير في كلام العرب. إنّ لبياض الشيب تشعشعاً بالنور لدى النظر إليه، كما يلتهب شواظ النار عند توقّد الاشتعال. و لو قال: «و اشتعل شيب الرأس»، لم يفهم منه تجلّل الرأس كلّه شيباً و إنارة ليكون دليلاً على بلوغ هرمه فضلاً عن إشعاره بموضع الشّبه للاستعارة.

و من لطيف كنايته، قوله تعالى: ﴿وَ راوَدَتْهُ الّتي هُو فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِه﴾،[1] كنّى عن طلب الجماع بالمراودة.

و من بديع استدلاله، قوله تعالى: (يَسْأَلُونَك ماذا يُنْفِقُونَ قُلْ ما أَنْفَقْتُم مِنْ خَيرٍ فَلِلوالِدَينِ وَ الأَقْرَبِينَ وَ اليَتامىٰ وَ المَساكينَ وَ ابنِ السَّبيلِ وَ ما تَفْعَلُوا مِن خيرٍ فإنَّ اللهَ به عَليمٌ﴾،[2] سئلوا عن الّذي ينفقونه، فأُجيبوا ببيان مصارف الإنفاق، تنبيهاً على أنّ المهمّ هو معرفة موضع الإنفاق، أمّا الّذي يجب أن ينفق فهو خير ما تيسّر، من أيّ جنس كان، لأنّ النفقة لا يعتدّ بها إلّا أن تقع موقعها، و كلّ ما فيه خير و صلاح فهو صالح للإنفاق. و من ثمّ ختمت الآية بنوايا صاحب الإنفاق و أنّ الله عليم بذات الصدور.

---

١ ـ يوسف: ٢٣.

٢ ـ البقرة: ٢١٥.

٢ـ الإعجاز العلمي:

لا شكّ أنّ القرآن كتاب حكمة و هداية و تربية و إرشاد ﴿يَتْلُو عَلَيهم آياتِه وَ يُزَكِّيهم وَ يُعَلِّمُهم الكتابَ وَ الحكمةَ﴾،[١] ﴿وَ يُحِلُّ لَهم الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عليهم الخبائثَ﴾،[٢] ﴿وَ يُخرِجُهُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذنِه﴾،[٣] ﴿لِيَكُونَ للعالَمِينَ نَذِيراً﴾.[٤] هذه هي رسالة القرآن في الأرض، ﴿أرْسَلَ رَسُولَه بِالهُدىٰ وَ دِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّه﴾.[٥]

إذاً فليست الشريعة دراسة طبيعة، و لم يكن القرآن كتاب علم بالذات، سوى إشارات عابرة جاءت في عرض الكلام، و إلماعات خاطفة و سريعة إلى بعض أسرار الوجود، يعرفها العلماء الراسخون، إذ لم تصدر على سبيل القصد و البيان، و هي في نفس الأمر تكشف عن مخزون علم لا يتناهى. ﴿قُلْ لَو كانَ البَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفَدَ البَحْرُ قَبْلَ أنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَ لَو جِئنا بِمِثْلِه مَدَداً﴾،[٦] ﴿إنَّ اللهَ قَدْ أحاطَ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً﴾[٧].

١ـ آل عمران: ١٦٤، الجمعة: ٢.

٢ـ الأعراف: ١٥٧.

٣ـ المائدة: ١٦.

٤ـ الفرقان: ١.

٥ـ الفتح: ٢٨، الصف: ٩.

٦ـ الكهف: ١٠٩.

٧ـ الطلاق: ١٢.

و إليك بعض ما وصلت إليه أفهام البشريّة من العلوم الطبيعيّة المقطوع بها تقريباً، و كان ذلك دليلاً على معجزة القرآن الخارقة للعادة، في زمان كان سرّ هذه العلوم و الآراء النظريّة مكتوماً على البشريّة، و أصبح اليوم مكشوفاً، و سيكتشف أيضاً حسب مرّ الأيّام.

أ. قوله تعالى: ﴿وَ جَعَلْنا مِنَ الماءِ كلَّ شَيءٍ حَيٍّ﴾،[١] يشير إلى أنّ أصل الحياة من الماء، في نشأتها و تكوينها و ظهورها في عالم الوجود. قال سيّدنا الأُستاذ العلّامة الطباطبائيﷺ: «في ظلّ البحوث العلميّة الحديثة ظهرت صلة الحياة بالماء».[٢]

ب. قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ﴾،[٣] يشير إلى أنّ نشأة الإنسان من ماء الرجل، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ الإنسانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾،[٤] و النطفة ماء الرجل و منيّه ينزله بشهوة و دفق. صرّح بذلك أهل اللغة. يقول الطبّ الحديث: «إنّ الماء الدافق هو ماء الرجل. أى: المني، يخرج من بين صلب الرجل و

---

١ ـ الأنبياء: ٣٠.

٢ ـ الميزان: ١٤/٣٠٥.

٣ ـ الطارق: ٥ ـ ٧. الدفق: الدفع بشدّة، الصلب: العمود الفقري الممتدّ من الكاهل حتى العجب، و الترائب: جمع تريب و تريبة، أُطلق على عظام متساوية الأطراف و مترادفة التركيب في هيكل الإنسان العَظمي... منها: العظم المنحني المتساوي الطرفين الكائن بين أُصول الفخذين فوق العانة، كما نقل عن الضحاك ـ فيما رواه ابن كثير ـ قال: التّرائب: بين الثديين و الرجلين و العينين. تفسير ابن كثير: ٤/٤٩٨.

٤ ـ النحل: ٤.

ترائبه ـ أي: أُصول أرجله ـ و ذلك لأنّ معظم الأمكنة و الممرّات الّتي يخرج منها السائل المنويّ تقع من الناحية التشريحيّة بين الصلب و الترائب».[١]

ج. قوله تعالى: ﴿وَ السَّماءَ بَنَيناها بِأيدٍ وَ إنّا لَمُوسِعُونَ﴾،[٢] ـ أي: بنيناها بقوّة و إحكام ـ يشير إلى حقيقة كانت خافية على البشر ثلاثة عشر قرناً، و هي أنّ فسحة السّماء لا تزال تتمدّد و تتوسّع مع توالى الأحقاب. و أوّل من تنبّه لذلك هو العالِم الفلكي لومتر البلجيكي، في عام ١٩٢٧ الميلادي.

د. قوله تعالى: ﴿وَ مَنْ يُرِدْ أنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ﴾،[٣] يشير إلى أنّ الطبقات العليا من الفضاء خالية من الهواء، أي: و من يرد أن يضلّه فهو كمن يحسّ بحرج في تنفّسه و تتضايق عليه الحياة بسبب ارتفاعه في طبقات عليا من الفضاء. هكذا يكشف العلم عن أسرار هذا الكتاب المبين.

هـ. قوله تعالى: ﴿وَ جَعَلْنا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾،[٤] يشير إلى حقيقة كشف عنها العلم، و هي إحاطة الأرض بواسطة غلاف هوائي سميك، قد يبلغ ارتفاعه أكثر من ٣٥٠ كيلومتراً، يكوّن تُرساً واقياً للأرض من قذائف السماء.

---

١ ـ مع الطب في القرآن الكريم: ٣٣.

٢ ـ الذاريات: ٤٧.

٣ ـ الأنعام: ١٢٥.

٤ ـ الأنبياء: ٣٢.

و. قوله تعالى: ﴿وَ السَّماءِ ذاتِ الحُبُكِ﴾،[١] يشير إلى الجاذبيّة العامّة. و الحبك: الشدّ الوثيق.

ز. قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهي تَمُرُّ مَرَّ السّحابِ﴾[٢] يشير إلى حركة الجبال، و ليست حركة الجبال في مسير الفضاء سوى حركة الأرض الانتقاليّة في دورتها السنويّة، أو الوضعيّة حول نفسها.

ح. قوله تعالى: ﴿أ يَحْسَبُ الإنسانُ أنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظامَه بَلَى قادِرينَ عَلى أنْ نُسَوِّيَ بَنانَه﴾،[٣] يشير إلى أنّ هناك معجزة كبرى في تسوية البنان، و بعثُه على صورته الأُولى يكون أكبر من إحياء العظام البالية، الأمر الّذي لم يكشف سرّه إلّا بعد نزول الآية بأكثر من ألف سنة، حينما عرف أنّ لكلّ إنسان بصمة خاصّة رسمت على بنانه لا يتّفق اثنان في بصمة واحدة، منذ أن خلق الله الإنسان. و هذا سرّ غريب في الخليقة أوّلاً و في إشارة القرآن إليه ثانياً.

الإعجاز الغيبي:

يلحق بالإعجاز العلمي الإعجاز الغيبي، و هو إخباره عمّا غاب عن النبي ﷺ و قومه ممّا لم يشهدوا حوادث الواقعة أو لم يحضر وقتها، فلم يكونوا على علم بتفاصيلها. و هو يشمل غيب الماضي و غيب الحاضر

---

١ ـ الذاريات: ٧.

٢ ـ النمل: ٨٨.

٣ ـ القيامة: ٣ و ٤.

وغيب المستقبل.

فمن غيب الماضي قوله تعالى بشأن قصّة مريم و كفالة زكريّا لها: ﴿ذلك مِن أنباءِ الغَيبِ نُوحِيه إليك وَ ما كُنْتَ لَدَيهم إذ يُلْقُونَ أقلامَهم أيُّهم يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ ما كُنْتَ لَدَيهم إذ يَخْتَصِمُونَ﴾،[١] و قوله بشأن قصّة نوح و قضيّة الطوفان: ﴿تلك مِن أنباءِ الغَيبِ نُوحِيها إليك ما كُنْتَ تَعْلَمُها أنت و لا قَومُك مِن قَبْلِ هذا﴾.[٢] فإنّ ورود أخبار الأُمم الماضية بهذا التفصيل الدقيق دليل على كونه وحياً من عند الله علّام الغيوب و ليس من عند البشر ذي العلم القصير و لا سيّما من مثل محمّدﷺ الّذي نشأ في بيئة لا تمكّنه الاطّلاع على مثل هذه الأُمور على دقائقها و ظرائفها. و ليست تهمة قريش بأنّها ﴿أساطِيرُ الأوَّلِينَ اكْتَتَبَها﴾،[٣] إلّا افتراءً مفضوحاً، جاءت على خلاف ما استيقنتها نفوسهم من أُمّيّة الرسولﷺ و عدم اتّصاله بأحد من أهل الكتاب و لم تكن له أسفار علميّة للبحث عن آثار الأُمم.

و من غيب الحاضر ـ و المقصود منه ما جرى على عهد الرسولﷺ، من حوادث لم يحضرها هو و لا الخصّيصون من أصحابه فنزل القرآن متضمّناً لها و مخبراً بحقيقة ما جرى ـ قوله تعالى بشأن المنافقين و بناءهم مسجداً ضراراً: ﴿وَ الّذينَ اتَّخَذُوا مسجداً ضِراراً وَ كُفراً وَ تَفْرِيقاً بينَ المؤمنينَ وَ إرصاداً لِمَنْ حاربَ اللهَ وَ رسولَه مِنْ قبلُ وَ لَيَحْلِفُنَّ إنْ أرَدْنا إلّا

---

١ ـ آل عمران: ٤٤.

٢ ـ هود: ٤٩.

٣ ـ الفرقان: ٥.

الحُسْنىٰ وَ اللهُ يَشْهَدُ إنَّهم لَكـاذِبُونَ﴾.[١] و الغـاية الأسـاسيّة مـن غـيب الحاضر هو تأييد الدعوة.

و من غيب المستقبل قوله تعالى: ﴿الم* غُلِبَتِ الرُّومُ* فـي أدنَـى الأرضِ وَ هُم مِن بَعدِ غَلَبِهم سَيَغْلِبُونَ* في بِضْعِ سنينَ للهِ الأمرُ مِن قبلُ وَ مِن بعدُ وَ يَومئذٍ يَفْرَحُ المؤمنونَ* بِنَصرِ اللهِ يَنْصُرُ مَن يَشاءُ وَ هو العزيزُ الرَّحيمُ* وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعدَه وَ لكنّ أكثرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾،[٢] و قوله تعالى: ﴿وَ إنْ كُنْتُم في رَيبٍ مِمّا نَزَّلنا على عَبدِنا فَأْتُوا بسُورةٍ مِن مِثلِه وَ ادْعُوا شُهَداءَكم مِن دونِ اللهِ إن كُنْتُم صادقِينَ* فإنْ لم تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النّارَ الَّتي وَقُودُها النّاسُ وَ الحِجارةُ أُعِدَّتْ للكافِرينَ﴾،[٣] و قـوله تعالى: ﴿هو الّذي أرْسَلَ رَسولَه بالهُدىٰ وَ دينِ الحقِّ لِيُظْهِرَه على الدّينِ كُلِّه وَ لَو كَرِهَ المُشرِكُونَ﴾،[٤] و قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الّذينَ آمَـنُوا مـنكم وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهم في الأرضِ كما اسْتَخْلَفَ الّذينَ مِن قَبْلِهم وَ لَيُمَكِّنَنَّ لهم دِينَهم الّذي ارْتَضىٰ لهم وَ لَيُبَدِّلَنَّهم مِن بعدَ خَوفِهم أمْناً﴾.[٥]

---

١ ـ التوبة: ٩٧.

٢ ـ الروم: ١ ـ ٦. كانت الحروب دامية بين الروم والفرس من سنة ٦٠٣م إلى سنة ٦٢٧م، و كانت الغلبة لإيران في أوّل الأمر، حتّى عام ٦٢٢م، و بعده انقلب الأمر. و الآية نزلت بمكّة حين كانت الغلبة للفرس على الروم، فكانت الهجرة ـ وكان في سنة ٦٢٢م ـ مقارنة لغلبة الروم على الفرس، تمهيداً للفتوحات الّتي كانت تنتظر المسلمين تجاه قوى الفرس.

٣ ـ البقرة: ٢٣و ٢٤.

٤ ـ الصف: ٩.

٥ ـ النور: ٥٥.

٣ـ الإعجاز التشريعي:

كانت للإنسان ـ و لا تزال ـ مسائل عن هذه الحيات، كان يحاول الإجابة عليها: من أين أتى؟ و لِمَ أتى؟ و إلى أين؟ و كانت محاولاته بهذا الشأن قد شكّلت مجموعة المسائل الفلسفيّة الباحثة عن سرّ الوجود. و لكن هل حصل على أجوبة كافية، أم كانت ناقصة غير مستوفاة لحدّ الآن لولا إجابة القرآن عليها إجابة وافية و شافية؟ ﴿يا أَيُّها النّاسُ قَدْ جاءتْكم مَوعِظَةٌ مِنْ رَبِّكم وَ شِفاءٌ لِما فِي الصّدورِ وَ هُدىً وَ رحمةٌ لِلمُؤمِنِينَ﴾.[١] القرآن الكريم هو الّذي تعرّض لحلّ معضلة الحياة و فصّل الكلام عن بدء الخليقة و الغاية عن الوجود و كشف عن سرّ الحياة، و أجاب عن مسائل ممّا لم يكد يعرفه الإنسان. ﴿عَلَّمَ الإنسانَ ما لم يَعْلَمْ﴾.[٢] الأمر الّذي جعل القرآن آية باهرة و معجزة قاهرة، دلّت على أنّه ليس كلام البشر و إنّما هو وحي أنزله الله تعالى هدىً و رحمة للعالمين. كما أتحف للبشريّة جمعاء برامج لنظم الحياة و ليعيش في سلامة و تؤدة و هناء، ممّا لم يسبقه ـ كما لم يلحقه ـ شريعة وضعها الإنسان. إنّ الإنسان مهما ارتقى في مدارج الكمال فإنّه لا يمكنه الانطلاق من قيود نزعاته الهابطة الّتي تربطه بخسائس الأرض أكثر ممّا يرتقيه إلى آفاق السماء. و هو لا يستطيع التخلّص من براثن الحيوانيّة والبهيميّة الّتي تتحكّم في نفسه إذا لم تكن مهذّبة تهذيباً يتناسب مع معالى

---

١ ـ يونس: ٥٧.

٢ ـ العلق: ٥.

الإنسانيّة الرفيعة. و من ثمّ فإنّ سماته الخسيسة سوف تبدو على ما يضعه من قانون أو يُعرضه من شرائع و أنظمة لتنظيم الحياة. و الشرائع السماويّة هي المتحرّرة عن هذه الخسائس، و من ثمّ جاءت صافية و نقيّة و نزيهة عن كلّ دنس و خسيسة بشريّة ممّا افتقدته الإنسانيّة منذ قرون، حيث جاء القرآن بشرائعه طاهرة زكيّة تسمو معارف البشريّة.

صفات المجد في القرآن: جاءت صفات المجد لله تعالى في القرآن صافية زاهية، و نزيهة و طاهرة، هي صفات الجلال و الجمال في تقديس و إكبار: **﴿هو اللهُ الّذي لا إلٰهَ إلّا هو عالِمُ الغيبِ وَ الشَّهادةِ هو الرَّحمٰنُ الرَّحيمُ* هو اللهُ الّذي لا إلهَ إلّا هو الملكُ القدّوسُ السَّلامُ المُؤمِنُ المُهَيْمِنُ العزيزُ الجَبّارُ المُتَكَبِّرُ سبحانَ اللهِ عمّا يُشْرِكُونَ* هو اللهُ الخالقُ البارىءُ المُصَوِّرُ له الأسماءُ الحُسنىٰ يُسَبِّحُ له ما في السّماواتِ و الأرضِ و هو العزيزُ الحكيمُ﴾**.[1] فهو الله لا إله غيره، لا شريك له، عالمُ الغيب و الشهادة لا يعزب عن علمه شيء هو الرحمن الرحيم، المسيطرُ على الخلق كلّه، المترفّعُ عن الدّنائس و الخسائس، الضامنُ على الخلق سلامتهم في عافية و هناء، المتكفّلُ للأمن و الطمأنينة على الناس في الحياة، المسيطرُ على مقدّرات الخلق، ربُّ العالمين، الّذي لا يغالب في تدبيره و تنفيذ إرادته، النافذُ إرادته، الّذي تلبّس بالعزّ و الكبرياء.

أمّا الّذي جاء في الكتب المحرّفة، المتداولة حينذاك، مثل العهدين، فإلى

---

١ ـ الحشر: ٢٢ ـ ٢٤.

الإهانة أقرب منها إلى الاحترام بشأنه تعالى. إله التوراة يخدع لآدم و حوّاء خشية أن يخلدا في الحياة، و يكذب في نصيحته لآدم و حوّاء ـ و إبليس يصادقهما ـ و يجهل مكانهما و يخشى أن يعرفا الخير من الشّر و يصبحا عاقلين.[١]

تقديس الأنبياء: يتعرّض القرآن لذكر الأنبياء فيصفهم بكلّ جميل ينبغي أن يوصفوا به، و ينسب إليهم كلّ مأثرة كريمة تلازم قداسة النّبوّة، و نزاهة السفارة الإلٰهيّة. قال تعالى: ﴿**الّذينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبيَّ الأُمّيَّ الّذي يَجِدُونَه مَكتُوباً عندَهم في التوراةِ وَ الإنجيلِ يَأمُرُهم بالمعروفِ وَ يَنهاهم عن المُنكرِ وَ يُحِلُّ لهم الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عليهم الخَبائثَ**﴾،[٢] و قال:

---

١ ـ جاء في التوراة المحرّفة في الإصحاح الثالث من سفر التكوين (العدد ١ـ ١٢، و ٢٢ـ ٢٤): «كانت الحيّة أحيل جميع الحيوانات، فقالت للمرأة: أحقّاً قال الله: لا تأكلا من كلّ ثمر الجنّة؟ فقالت المرأة للحيّة: و أمّا ثمر الشجرة الّتي في وسط الجنّة فقال الله: لا تأكلا منه و لا تمسّاه لئلّا تموتا، فقالت الحيّة للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنّه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما و تكونون كالله عارفين للخير و الشّر، فأخذت المرأة من ثمرها و أكلت و أعطت رجلها أيضاً معها فأكل، فانفتحت أعينهما، و علما أنّهما عريانان، فخاطا أوراق تين و صنعا لأنفسهما مآزر، و سمعا صوت الرّب الإله ماشياً في الجنّة عند هبوب ريح النهار. فاختبأ آدم و امرأته من وجه الرّب الإله في وسط شجر الجنّة. فنادى الرّب الإله آدم و قال له: أين أنت؟ فقال آدم: سمعت صوتك في الجنّة فخشيت لأنّي عريان فاختبأت، فقال الرّب: من أعلمك أنّك عريان؟ هل أكلت من الشجرة الّتي أوصيتك أن لا تأكل منها؟... و قال الرّب الإله: هو ذا الإنسان قد صار كواحد منّا عارفاً للخير و الشّرّ، و الآن لعلّه يمدّ يده و يأخذ من شجرة الحياة أيضاً و يأكل و يحيى إلى الأبد، فأخرجه الرّب الإله من جنّة عدن فطرد الإنسان، و أقام شرقي جنّة عدن الكروبيم، و لهيب سيف منقلب لحراسة طريق شجر الحياة».

٢ ـ الأعراف: ١٥٧.

﴿اولئك الّذينَ أنْعَمَ اللهُ عليهم مِن النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيةِ آدمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مع نوحٍ وَ مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ وَ إسرائيلَ وَ مِمَّن هَدَينا وَ اجْتَبَينا إذا تُتلىٰ عليهم آياتُ الرَّحمٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيّاً﴾.[١]

أمّا كتب العهدين فقد تعرّضت أيضاً لذكر الأنبياء و وصفتهم، و لكن بماذا وصفتهم؟ و بأيّ منزلة وضيعة أنزلت هؤلاء السفرة الأبرار؟

جاء في الإصحاح ١٢ من سفر التكوين: «انحدر أبرام إلى مصر، و حدث لمّا قرب أن يدخلها أنّه قال لساري امرأته: قد علمتِ أنّكِ حسنة المنظر، فيكون إذا رآكِ المصريّون فيقولون: إنّها امرأته، فيقتلونني و يستبقونكِ. قولي: إنّكِ أُختي، ليكون لي خير بسببكِ، و تحيا نفسي من أجلك. و لمّا دخلوا مصر و رآها المصريّون أنّها حسنة جدّاً وصفوها لفرعون، فأُخذت إلى بيت فرعون، فصنع إلى أبرام خيراً بسببها و صار له غنم و بقر و حمير و عبيد و إماء و أُتن[٢] و جمال. و حينما علم فرعون أنّها امرأة أبرام و ليست أُخته دعا أبرام و وبّخه و قال له: ما هذا الّذي صنعت بي؟ لماذا لم تخبرني أنّها امرأتك؟ فردّها عليه».

أفهل يعقل من نبي عظيم أن يعرّض زوجته للفحشاء بغية حفظ نفسه أو طلباً في المال؟ قال سيّدنا الأُستاذ الإمام الخوئيﷺ: «حاشا إبراهيم ـ وهو من أكرم أنبياء الله ـ أن يرتكب ما لا يرتكبه فرد عاديّ من الناس».[٣]

---

١ ـ مريم: ٥٨.

٢ ـ جمع أتان بمعنى حمارة.

٣ ـ البيان: ٦٣.

و جاء في الإصحاح ١٩ من سفر التكوين: «و صعد لوط من صوغر و سكن في الجبل و ابنتاه معه، و قالت البكر للصّغيرة: «أبونا قد شاخ و ليس في الأرض رجل ليدخل علينا، هلمّ نسقي أبانا خمراً و نضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً». ففعلتا ذلك من غير أن يشعر أبوهما بفعلتهما الشّنيعة، فحملتا منه».

و جاء في الإصحاح ١١ و١٢ من صموئيل الثاني: «أنّ داود زنى بامرأة أُوريا في غياب منه، لأنّه كان في قتال مع الكفّار، فحبلت منه، و خشي داود الفضيحة و أراد تمويه الأمر، فكتب إلى رئيس جنده أن يجعل أُوريا في مقدّمة الجيش، فقتل أُوريا. فضمّ داود امرأة أُوريا إلى بيته و صارت امرأته».

شمول الدعوة: القرآن يحمل رسالة الله إلى كافّة الخلائق، لا تخصّ أُمّة دون أُخرى. قال تعالى: ﴿وَ ما أرسلناك إلّا كافّةً للنّاسِ﴾،[1] و قال: ﴿هو الّذي أرْسَلَ رَسُولَه بالهُدىٰ وَ دِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلى الدّينِ كُلِّه﴾.[2]

لكن الدعوة ـ في العهد القديم ـ موجّهة إلى شعب بني إسرائيل، وكانت الشّريعة خاصّة ببني إسرائيل، شعب الله المختار، حسب زعمهم. سوى أنّ القرآن يردّ تلك المزعومة و يصرّح بأنّ دعوة النبيّين ـ و لا سيّما أُولي العزم منهم ـ كانت عامّة لجميع شعوب العالم، قال تعالى: ﴿وَ إذ

---

١ ـ سبأ: ٢٨.

٢ ـ الصّف: ٩، التوبة: ٣٣.

أَخَذَاللهُ مِيثاقَ الّذين أُوتُوا الكتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنّاسِ﴾،[١] و قال بشأن التوراة و الإنجيل: ﴿و أَنْزَلَ التَّوراةَ وَ الإنجيلَ* مِن قَبلُ هُدىً للناسِ﴾.[٢]

تشريعاته الراقية: جاءت تشريعات القرآن متوافقة مع الفطرة السّليمة و متلائمة مع العقل الرّشيد، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجهَكَ للدِّينِ حَنيفاً فِطرَةَ اللهِ الّتي فَطَرَ الناسَ عليها لا تَبدِيلَ لخلقِ اللهِ ذلك الدِّينُ القَيِّمُ وَ لكنَّ أكثرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.[٣] و من جهة أُخرى، كانت القوانين الإلٰهيّة جامعة و شاملة للجوانب الثلاثة في حياة الإنسان: جانب الفرد ذاته، و جانب المجتمع الّذي يعيش فيه، و جانب حقّ الله تعالى في الخلق. و إليك بعض الأمثلة:

أ. أضاف القرآن إلى جانب مفاهيمه عن الوجود و المبدأ و المعاد فرائض و عبادات بغية المحافظة على الروح الدينيّة عند المسلمين. و أهمّ هذه الواجبات ـ أو أركان الإسلام ـ هي: الصلاة و الصيام و الحجّ و الزكاة أو الصدقات بعمومها.

ب: إنّ الأُسرة في نظر القرآن تعدّ اللبنة المهمّة في البناء الاجتماعي، و على مدى سلامتها و متانة العلاقات القائمة في داخلها يتوقّف سلامة البناء برمّته. قال تعالى: ﴿يا أيّها النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكم الّذي خَلَقَكم مِن نَفْسٍ واحدةٍ وَ خَلَقَ منها زَوجَها وَ بَثَّ منهما رِجالاً كثيراً وَ نِساءً﴾،[٤] ﴿خَلَقَ لكم مِن

---

١ ـ آل عمران: ١٨٧.

٢ ـ آل عمران: ٣ و ٤.

٣ ـ الروم: ٣٠.

٤ ـ النساء: ١.

أنْفُسِكم أزواجاً لِتَسْكُنُوا إليها وَ جَعَلَ بَيْنَكم مَوَدَّةً و رَحمةً﴾.[١] فالسكن هنا و المودّة و الرحمة عناصر أساسيّة في استقامة البناء الأُسْرِيّ.

ج. قال تعالى بشأن القصاص: ﴿يا أيّها الّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عليكم القصاصُ في القتلىٰ الحُرُّ بالحرِّ وَ العبدُ بالعبدِ و الأُنثىٰ بالأُنثىٰ فَمَن عُفِيَ له مِن أخِيه شيءٌ فاتِّباعٌ بالمعروفِ وَ أداءٌ إليه بإحسانٍ ذلك تخفيفٌ من ربِّكم وَ رحمةٌ فَمَن اعتدىٰ بعدَ ذلك فله عذابٌ أليمٌ* وَ لكم فِي القصاصِ حياةٌ يا أُولي الألبابِ﴾.[٢]

د. قال تعالى بشأن اليتامىٰ: ﴿وَ آتُوا اليَتامىٰ أموالَهم و لا تَتَبَدَّلُوا الخَبيثَ بالطَّيِّبِ و لا تأكُلُوا أموالَهم إلى أموالِكم إنّه كان حُوباً كَبيراً﴾.[٣]

هـ. إنّ القرآن في حين إقراره للإنسان حقّاً واجباً ـ إذا أعطينا صفة التعميم لقاعدة: ﴿و لهنّ مثل ما عليهنّ﴾[٤] ـ حكم بنفي الضرر أيضاً، قال: ﴿وَ أشْهِدُوا إذا تَبايَعْتُم وَ لا يُضارَّ كاتبٌ وَ لا شَهِيدٌ﴾،[٥] ﴿وَ لا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً﴾.[٦]

و. اعتبر القرآن كلّ فعل ضارّ بالغير موجباً لمسؤوليّة الفاعل أو

١ـ الروم: ٢١.

٢ـ البقرة: ١٧٨ و ١٧٩.

٣ـ النساء: ٢.

٤ـ البقرة: ٢٢٨.

٥ـ البقرة: ٢٨٢.

٦ـ البقرة: ٢٣١.

المتسبّب بالتعويض عن الضرر و لو كان عن خطأ. ﴿وَ مَن قَتَلَ مُؤمناً خَطَأً فَتَحرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤمِنَةٍ وَ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أهْلِه﴾.[١]

ز. اعتبر القرآن أنّ كلّ فعل ممنوع ففي ارتكابه عقوبة، قال تعالى: ﴿وَ جزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مثلُها﴾.[٢]

ح. حدّد القرآن نوعاً خاصّاً من العقوبة لجرائم معيّنة: (الزّانيةُ وَ الزّاني فَاجْلِدُوا كُلَّ واحدٍ منهما مائةَ جلدةٍ﴾،[٣] و ﴿السّارقُ وَ السّارقةُ فَاقْطَعُوا أيْدِيَهما﴾.[٤]

ط. أقرّ القرآن بالحرّية: ﴿لا إكراهَ في الدِّينِ﴾.[٥] و المساواة أمام القانون: ﴿إنّ أكْرَمَكم عندَ اللهِ أتْقاكم﴾.[٦] و احترام أفكار الأُمّة: ﴿وَ أمْرُهم شُورىٰ بَينَهم﴾.[٧]

ى: بما أنّ وقوع النزاع و التخاصم في المجتمع الإنساني أمر لا مفرّ منه، وضع القرآن أحكاماً قضائيّة، لرفع الخصومات.

ك: أشار القرآن الكريم إلى أنّ لوليّ الأمر في الدولة الإسلاميّة صلاحيّات إداريّة و أنّ في يده جميع السلطان. ﴿أطِيعُوا اللهَ وَ أطِيعُوا

١ـ النساء: ٩٢.

٢ـ الشورى: ٤٠.

٣ـ النور: ٢.

٤ـ المائدة: ٣٨.

٥ـ البقرة: ٢٥٦.

٦ـ الحجرات: ١٣.

٧ـ الشورى: ٣٨.

الرّسولَ وَ أُولي الأمرِ منكم﴾.[١]

ل. القرآن يرى بني نوع الإنسان أعضاء بدن واحد، ﴿بعضُكم مِن بعضٍ﴾.[٢] و لا يفضل حرّاً على عبد. بل لم يعترف بالرّقيّة كما كانت عليه الأُمم في ذلك اليوم. كان العالم المتمدّن يرى اللون والجنسيّة ملاكاً للحرّيّة و الرقّيّة، و أنّ ذا اللون الأسود أو العائش في بلاد نائية عن الأوساط المتمدّنة إنّما خلق ليكون مملوكاً للإنسان الأبيض العاش في أوساط البلاد. و من ثمّ كان الإفريقيّون يصادون كما يصاد الحيوان الوحش لأجل الاستخدام و العرض في أسواق العالم. قام القرآن بالتحرّر الرّوحي ـ في الأرقّاء ـ قبل قيامه بتحرّرهم الجسمي، فقد جعلهم متساوين مع السادة في الروح والإنسانيّة و سائر الحقوق، ثمّ مهّد السبيل لتحرّرهم الواقعي. فقد قرّر صرف قسط كبير من الصدقات في سبيل تحرير الأرقّاء، ﴿إنّما الصدَّقاتُ للفقراءِ و المساكينِ و العامِلينَ عليها و المؤلَّفَةِ قُلُوبُهم و في الرِّقابِ...﴾،[٣] ﴿فلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ* و ما أدْراكَ ما العَقَبَةُ* فَكُّ رَقَبَةٍ* أو إطعامٌ في يومٍ ذي مَسْغَبَةٍ...﴾.[٤] العقبة كناية عن ركوب الصعاب، و المراد هنا: المشقّة على النفس و ذلك ببذل المال في سبيل الله الّذي هو دليل الإيمان الصادق. فأوّل ما بدأ به فكّ الرّقاب. قال العلّامة الطباطبائيﷺ: «لكمال عناية الدين بفكّ

١ـ النساء: ٥٩.

٢ـ النساء: ٢٥.

٣ـ التوبة: ٦٠.

٤ـ البلد: ١١ـ ١٤.

الرقاب».[١] و من العناية بشأن الرّقاب جعله كفّارة لبعض الآثام، كقتل الخطأ و الحنث في الأيمان و نحو ذلك، ﴿وَ مَن قَتَلَ مُؤمناً خَطَأً فَتَحرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤمِنَةٍ وَ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أهْلِه﴾.[٢] و غير ذلك من الأحكام.

أمثلة من تشريعات التوراة:

١. إذا نطح ثور رجلاً أو امرأة فمات يرجم الثّور و لا يؤكل لحمه. و أمّا صاحب الثّور فيكون بريئاً. و لكن إن كان ثوراً نطّاحاً من قبلُ و قد أُشهد على صاحبه و لم يضبطه فقَتَلَ رجلاً أو امرأة فالثور يُرجم و صاحبه أيضاً يُقتل.[٣]

٢. من مسّ ميّتاً ميتةَ إنسانٍ مّا يكون نجساً سبعة أيّام.

٣. إذا كانت امرأة لها سيل و كان سيلها دماً في لحمها فسبعة أيّام تكون في طمسها، و كلّ من مسّها يكون نجساً إلى المساء. و كلّ ما تضطجع عليه في طمسها يكون نجساً، و كلّ ما تجلس عليه يكون نجساً و كلّ من مسّ فراشها يغسل ثيابه و يستحمّ بماء و يكون نجساً إلى المساء.[٤]

٤: كلّ إنسان سبّ أباه أو أُمّه فإنّه يقتل.[٥]

٥. الجثّة (الميتة و كلّ ما ذبح على غير الطريقة الشرعيّة) لا يأكلها

١ـ الميزان: ٣٢٢/٢٠.

٢ـ النساء: ٩٢.

٣ـ سفر الخروج: ٢١/١.

٤ـ لاويين: ١٥/١.

٥ـ لاويين: ٢٠/١.

إسرائيلي، بل يدفعها إلى الأجنبي الغريب، ذلك لأنّ الإسرائيلي شعب مقدّس يترفّع عن أكل الجثّ.[١]

٦. لا يطالب صاحبه و لا أخاه، لأنّه نودي بإبراء للربّ. الأجنبي تطالب. و أمّا ما كان لك عند أخيك فتبرئه يَدَكَ منه.[٢]

الأسئلة

١. ما معنى الإعجاز لغة و اصطلاحاً؟
٢. هل المعجزة ضرورة دفاعيّة أو تبليغيّة؟ بيّن ذلك.
٣. أُذكر كلام الراغب في أقسام المعجزة.
٤. هل القرآن معجزة حسيّة أو عقليّة؟
٥. كيف أدركت العرب الجاهليّة الأُولى إعجاز القرآن؟
٦. ما الجواب عن القول بأنّ القرآن عورض و لم ينقل؟
٧. ما وجه امتياز القرآن عن سائر المعاجز؟
٨. ما معنى التحدّي و ما خطواته؟
٩. هل وقع التحدّي بجميع وجوه الإعجاز أم يختصّ جانب فصاحته وبلاغته فقط؟ وضّح ذلك.
١٠. هل التحدّي يشمل كلّ الأُمم و كُلّ أدوار التاريخ؟ بيّن ذلك.

١ـ التثنية: ١/١٤.

٢ـ التثنية: ١/١٥.

١١. ما هو رأى الكاتبة بنت الشاطي في مسألة التحدّي؟ و ما جوابها؟
١٢. ماذا يقول الدكتور عبدالله درّاز في مسألة الإعجاز؟
١٣. كيف جاز التحدّي و الناس عاجزون أن يأتوا بمثل كلام بعضهم؟
١٤. أُذكر أبعاد إعجاز القرآن.
١٥. ما المراد من الإعجاز البياني؟ أُذكر أمثلة لذلك.
١٦. ما المراد من الإعجاز العلمي؟ أُذكر أمثلة لذلك.
١٧. ما المراد من الإعجاز الغيبي؟ أُذكر أمثلة لذلك.
١٨. ما المراد من الإعجاز التشريعي؟
١٩. لِمَ لا يمكن للإنسان أن يجيب عن مسائل حياته بصورة وافية؟
٢٠. كيف جاء صفات الله في القرآن و كتب العهدين؟
٢١. ما الفرق بين صفات الأنبياء في القرآن و التوراة؟ مثّل لذلك.
٢٢. أُذكر رأي القرآن و التوراة في شمول دعوة الأنبياء لجميع الناس؟
٢٣. ما هو رأي القرآن بالنسبة إلى الأُسرة؟
٢٤. اشرح رأي القرآن حول المفاهيم الآتية: القصاص، اليتامى، نفي الضرر، الحرّيّة، إطاعة وليّ الأمر، مساواة الناس في حقوقهم الاجتماعيّة.
٢٥. أُذكر أمثلة من تشريعات التوراة.

الحمد لله الذي هدانا لهٰذا و ما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله و صلّى الله علىٰ محمّد و آله الطاهرين سيّما سيّدنا و مولانا الإمام المنتظر عجّل الله تعالىٰ فرجه الشريف و جعلنا من أعوانه و أنصاره و جعلنا من المستشهدين بين يديه. و قد وقع الفراغ من تلخيص كتاب «التمهيد في علوم القرآن» تأليف أُستاذنا العلاّمة آية الله الشيخ محمد هادي معرفة دام ظلّه العالي، ليلة إحدىٰ و عشرين من شهر رمضان المبارك سنة ١٤١٧ «ليلة القدر» و أسأل الله تعالىٰ من فضله أن يجعلنا من المتمسّكين بالثقلين كتاب الله والعترة و أن يوفّقنا لما يحبّ و يرضىٰ و أن ينفعنا به ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ إِلّا مَن أَتَى اللهَ بِقَلبٍ سَلِيمٍ﴾.

٢١ رمضان المبارك ١٤١٧ ـ ١٢ بهمن ١٣٧٥

قم المقدّسة، محمود الملكي الإصفهاني

الفهرست

ظاهرة الوحي ٧
الوحي في اللّغة ٧
الوحي في القرآن ٧
أنحاء الوحي بالنسبة إلى نبيّنا محمّدﷺ ١٠
١ ـ الرؤيا الصادقة ١٠
٢ ـ نزول جبرائيل ١١
٣ ـ الوحي المباشري ١٢
موقف النبيﷺ من الوحي ١٣
كيف عرف النبيﷺ أنّه مبعوث بالرسالة؟ ١٣
هل يجوز على النبيﷺ أن يخطأ في ما يوحى إليه؟ ١٣
ردّ قصّة ورقة بن نوفل ١٦
ردّ أُسطورة الغرانيق ١٧
الأسئلة ٢١

نزول القرآن ٢٣
بدء نزول الوحي ٢٣
بدء نزول القرآن ٢٤
أوّل ما نزل ٣٢
١ ـ سورة العلق ٣٢
٢ ـ سورة المدَّثِّر ٣٢
٣ ـ سورة الفاتحة ٣٣
الجمع بين الأقوال ٣٤
آخر ما نزل ٣٤
١ ـ سورة النصر ٣٤
٢ ـ سورة براءة ٣٥
٣ ـ آية (وَاتَّقُوا يَوْماً...) ٣٥
٤ ـ آية إكمال الدين ٣٥
الجمع بين الأقوال ٣٥
المكّي والمدني ٣٦
ترتيب نزول السور ٣٧
السّور المكّية ٣٩
السّور المدنيّة ٤١
الأسئلة ٤٢
أسباب النزول ٤٤

التنزيل و التأويل ٤٦
العبرة بعموم اللفظ لا خصوص المورد ٤٨
نزول القرآن بـ«إيّاك أعني فاسمعي يا جارة» ٤٩
كيف الاهتداء إلى معالم القرآن ٥٠
الأسئلة ٥١
تأليف القرآن ٥٢
نظم كلماته ٥٣
تأليف آياته ٥٤
ترتيب سوره ٥٦
جمع علي بن أبي طالب عليه السلام ٥٧
جمع زيد بن ثابت ٥٩
مصاحف أُخرىٰ للصحابة ٦١
الأسئلة ٦٢
توحيد المصاحف ٦٤
فكرة توحيد المصاحف ٦٥
لجنة توحيد المصاحف ٦٧
عدد المصاحف العثمانية ٦٩
تعريف المصاحف العثمانية ٧٠
١ ـ الترتيب ٧٠
٢ ـ النقط و التشكيل ٧٠

٣ ـ مخالفات في رسم الخطّ ٧٢
٤ ـ مناقضات في الرسم العثماني ٧٤
٥ ـ اختلاف المصاحف ٧٥
الأسئلة ٧٦
الإناقة والتجويد ٧٨
الأسئلة ٧٩
القراءات في نشأتها و تطوّرها ٨٠
عوامل نشوء الاختلاف ٨١
١ ـ بداءة الخطّ ٨١
٢ ـ الخلوّ عن النقط ٨١
٣ ـ التجريد عن الشكل ٨٢
٤ ـ إسقاط الألفات ٨٢
٥ ـ تأثير اللهجة ٨٣
٦ ـ تحكيم الرأي والاجتهاد ٨٣
٧ ـ غلوّ في الأدب ٨٤
٨ ـ شذوذ نفسي ٨٤
٩ ـ عوامل أُخرىٰ ٨٤
أ. زعم خطأ النسخة ٨٥
ب. تخليط التفسير بالنصّ ٨٥
ج. أهداف سياسيّة ٨٥

د. نظرات كلاميّة ٨٦
هـ عدم معرفة القاري بقواعد اللّغة والأدب ٨٦
أنواع اختلاف القراءات ٨٦
الأسئلة ٨٨
تواتر القراءات ٩٠
أدلّة عدم تواتر القراءات ٩٢
١ ـ إنكارات على القرّاء ٩٢
٢ ـ قراءات شاذّة من السبعة ٩٣
٣ ـ تعاليل و حجج اجتهاديّة ٩٣
٤ ـ تناقض في القراءات ٩٤
٥ ـ عدم الملازمة بين تواتر القرآن و تواتر القراءات ٩٥
٦ ـ لا صلة بين الأحرف السبعة والقراءات السبعة ٩٨
الأسئلة ١٠٠
حديث الأحرف السبعة ١٠١
أحاديث «سبعة أحرف» على أربع طوائف ١٠١
١ ـ اللهجات العربيّة ١٠١
٢ ـ جواز تبديل الكلمة إلى مرادفتها ١٠٢
٣ ـ البطون ١٠٢
٤ ـ تنوّع الآيات إلى أبواب سبعة ١٠٣
الأسئلة ١٠٨

ضابط قبول القراءة ١٠٩
تواتر القرآن ١١٠
ملاك صحّة القراءة ١١٢
١ـ موافقتها مع الثبت المعروف ١١٢
٢ـ موافقتها مع الأفصح في اللّغة ١١٤
٣ـ أنْ لايعارضها دليل قطعيّ ١١٥
القراءة المختارة ١١٦
الأسئلة ١١٨
القراءات السبعة ١١٩
حصر القراءات في السبعة ١١٩
القرّاء السبعة ١٢٠
حفص و قراءتنا الحاضرة ١٢٣
الأسئلة ١٢٤
الناسخ والمنسوخ ١٢٥
تعريف النسخ ١٢٥
حقيقة النسخ ١٢٦
الفرق بين النسخ والبداء ١٢٧
الفرق بين النسخ و التخصيص ١٢٨
شروط النسخ في القرآن ١٢٨
١ـ تحقّق التنافي بين تشريعين وقعا في القرآن ١٢٨

٢ـ أن يكون التنافي كليّاً على الإطلاق ١٢٩
٣ـ أن لايكون الحكم السابق محدّداً بأمد صريح ١٣٠
٤ـ أن يتعلّق النسخ بالتشريعيّات ١٣٠
٥ـ التحفّظ على نفس الموضوع ١٣١
صنوف النسخ في القرآن ١٣١
١ ـ نسخ الحكم والتلاوة معاً ١٣١
٢ ـ نسخ التلاوة دون الحكم ١٣٢
٣ ـ نسخ الحكم دون التلاوة ١٣٣
الأسئلة ١٣٦
المحكم والمتشابه ١٣٨
الإحكام والتشابه ١٣٨
عوامل التشابه و عوامل الإبهام ١٣٩
هل في القرآن متشابه؟ ١٤١
حقيقة التأويل ١٤٣
هل يعلم التأويل غير الله؟ ١٤٦
من هم الراسخون في العلم؟ ١٤٩
الأسئلة ١٥٠
صيانة القرآن من التحريف ١٥٢
التحريف في اللّغة ١٥٢
التحريف في الاصطلاح ١٥٣

١ ـ تحريف مدلول الكلام ١٥٣
٢ ـ تحريف موضعي ١٥٣
٣ ـ تحريف قرائي ١٥٤
٤ ـ تحريف في لهجة التعبير ١٥٤
٥ ـ تحريف بتبديل الكلم ١٥٥
٦ ـ التحريف بالزيادة ١٥٥
٧ ـ التحريف بالنقص ١٥٦
القرآن ولغة التحريف ١٥٧
دلائل بطلان شبهة التحريف ١٥٨
١ ـ بديهة العقل ١٥٨
٢ ـ ضرورة تواتر القرآن ١٥٩
٣ ـ مسألة الإعجاز ١٦٠
٤ ـ آية الحفظ ١٦٣
٥ ـ نفي الباطل عنه ١٦٥
٦ ـ العرض على كتاب الله ١٦٦
٧ ـ نصوص أهل البيت عليهم السلام ١٦٨
الأسئلة ١٧٠
الإعجاز القرآني ١٧١
معنى الإعجاز ١٧١
التحدّي و مراحله ١٧٥

شمول التحدّي ١٧٧
أبعاد إعجاز القرآن ١٨٠
١ـ الإعجاز البياني ١٨٠
٢ـ الإعجاز العلمي ١٨٤
الإعجاز الغيبي ١٨٧
٣ـ الإعجاز التشريعي ١٩٠
صفات المجد في القرآن ١٩١
تقديس الأنبياء ١٩٢
شمول الدعوة ١٩٤
تشريعاته الراقية ١٩٥
أ. الفرائض والعبادات ١٩٥
ب. الأُسرة ١٩٥
ج. القصاص ١٩٦
د. اليتامىٰ ١٩٦
هـ حقّ الإنسان و نفي الضرر ١٩٦
و. مسؤوليّة الفاعل أو المتسبّب الضارّ ١٩٦
ز. عقوبة فاعل بعض الأفعال ١٩٧
ح. عقوبة خاصّة لجرائم معيّنة ١٩٧
ط. الحرّيّة و المساواة أمام القانون و احترام أفكار الأُمّة ١٩٧
ى. القوانين الجزائيّة ١٩٧

ك. وليّ الأمر في الدّولة الإسلاميّة ١٩٧
ل. بنو نوع الإنسان أعضاء بدن واحد..... ١٩٨
أمثلة من تشريعات التوراة..... ١٩٩
الأسئلة ٢٠٠
الفهرست..... ٢٠٣